

تحقيق
الدكتور رابح بن خويا

من أنا؟

محمد البشير الإبراهيمي

سيرته بقلمه

الوطن اليوم

مـن أنـا؟

مُحمدُ البَشِيرِ الإِبْرَاهِيمِيُّ

سِيرَتُهُ بِقَلَمِه

تَحقيقُ

الدّكتور رابح بن خوية







مسؤول النشر: **كمال قرور**

مديرة السّلسلة: **نوّارة لحرش**

الإشراف العام: **ناصر معماش والخير شوار**

مصلحة التسويق (النقال): 07.70.32.02.08

---

02 شارع محمد سليماني، حي حيرش إبراهيم، العلمة، سطيف

البريد الالكتروني: elwatan.elyoum@gmail.com

الكتاب: من أنا (محمد البشير الإبراهيمي سيرته بقلمه)

المؤلف: الدكتور رابح بن خوية

مصمم الغلاف: حكيم خالد

الصنف: آداب

الحجم: 19/11.5

© منشورات الوطن اليوم 2018 

ردمك: 978-9931-387-97-8

الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لم يتّسعْ وقتي للتّأليف والكتابة مع هذه الجُهود الّتي تأْكُلُ الأَعمَارَ أكْلًا، ولكنّني أتسلّى بأنّني ألّفْتُ للشّعب رجالًا، وَعَمِلْتُ لِتحْرِيرِ عُقولِهِ تمهيدًا لتَحرِيرِ أَجْسَادِهِ، وَصَحَّحْتُ لَهُ دِينَه ولُغَتَهُ، فأَصْبحَ مُسلمًا عَربيًّا، وصَحَّحْتُ لَهُ مَوازِينَ إدراكِهِ، فَأَصْبَحَ إنسانًا أبيًّا، وحَسْبِي هَذَا مقرّبًا مِنْ رِضَى الرَّبِ ورِضَى الشَّعْبِ.﴾

محمد البشير الإبراهيمّي

مقدمة:

سِيرَةُ الشّيخ محمّد الإبراهيميّ:

لعلّ ما دوّنه ووثّقه أحمد طالب الإبراهيمي من نصوص ووثائق تتعلّق بوالده الشّيخ محمّد البشير الإبراهيميّ في كتابه المعروف بـ(آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ) في أجزائه الخمسة يعدّ، بلا ريب، مرجعا أساسيًّا لسيرة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي ولمساره.

إنّ آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي[1] بوصفها مرجعا تاريخيّا ومستندا سيريًّا عظيم الفائدة كثير الغناء تتوفّر على قيم تاريخيّة كبيرة وأدبيّة نادرة، وهي بقدر ما تعبّر عن مسيرة رجل مصلح عظيم وسيرة عالم مهمّ، فهي تعبّر بصدق وافر عن تاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونضالاتها في سبيل تحرير العقول والأبدان، وتعبّر عن تاريخ الجزائر في مرحلة دقيقة من مراحلها في العصر الحديث.

ومن هذا المنظور، تعدّ هذه الآثار سيرة كبرى تتناول بتفصيل كبير موثّق حياة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي من خلال جميع أنشطته الإصلاحيّة الدينيّة والسّياسيّة

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:1، 1997. وهي خمسة أجزاء تبدأ بسنة 1929م تتوقّق عند سنة 1964.

والاجتماعيّة والثّقافيّة والأدبيّة المتنوّعة في محلّ إقامته وفي منفاه، في حلّه وفي ترحاله.[1]

رغم أنّ الإبراهيميّ لم يحفل بكتابة سيرة ذاتيّة مفصّلة عنه كما فعل سابقوه ومعاصروه من العلماء والأدباء، قديما وحديثا، فذلك لم يكن من غرضه، غير أنّه خطّ بقلمه سيرة ذاتية موجزة، صغيرة الحجم، وردت في ثلاث نسخ مختلفات تبعا للمواقف والأسباب والبواعث الّتي دعت إلى كتابتها واقتضت تقديمها، سواء أكان ذلك في مجالس علميّة أم في لقاءات صحافيّة.

فأشهر سيرة ذاتيّة وجيزة للإبراهيميّ، وهي بتخطيط قلمه وبتعبير لسانه، تلك الّتي كتبها وأرسل بها إلى مجلة (المصوّر) المصريّة خلال حوار مع المجلّة، ونشرت سنة 1955م، وهي ذاتها النّسخة الواردة، أيضا، في الجزء الخامس من الآثار وتمتدّ من الصّفحة (163) إلى الصّفحة (170)، ووسمها بـ**(من أنا؟)**[2]

وفي هذه السّيرة محاور أساسيّة التفت إليها الإبراهيمي وركّز عليها، وهي على الترتيب؛ حيث تضمّنت اسمه ونسبه الشّريف ولقبه وقبيلته وذكر ما وقع في عمود نسبه

(1) لقد قسّم نجل الشّيخ الإبراهيمي أحمد طالب الإبراهيميّ حياة الإبراهيميّ، في مقدّمة الجزء الأوّل إلى أقسام سبعة؛ وهي مرحلة التّكون والتّحصل العلميّ (1889-1911)، والرّحلة المشرقيّة الأولى (1911 -120) ومرحلة الإرهاصات (1920 -1931) وبدايات جمعيّة العلماء (1931 -1940) وقيادة الحركة الدّينيّة والثّقافيّة بالجزائر (1940 -1952) والرحلة المشرقيّة الثّانية (1952 -1962) والمرحلة الأخيرة (1962 -1965).

(2) المصدر السابق، ج5، ص163. ومجلة الثقافة الجزائرية، ع87، السنة 15، 1985.

من علماء أجلاّء وأشار إلى موطنه ومولده ونشأته وتعلّمه وشيوخه ورحلته إلى الشّرق وانتقاله إلى دمشق ورجوعه إلى الجزائر، وإلى تأسيس جمعيّة العلماء الجزائريين، وتحدّث عن عمله في الجمعيّة، وبيّن موقف الاستعمار الفرنسيّ منه، وتكلّم عن رحلته إلى الشّرق، وأولاده، وانتهى بحديث مقتضب عن حالته المادّية.

وإضافة إلى نسخة هذه السّيرة، هناك نسخة أو نصّ لسيرة كتبه الإبراهيميّ يوم انتخب عضوا بمجمع اللغة العربيّة بالقاهرة سنة 1961، وبطلب من هيئة المجمع، وقد نشر نصّ هذه السّيرة، في القاهرة، في مجلّة مجمع اللّغة العربيّة، المجلّد 21، سنة 1966. وهو المثبت في الجزء الخامس من الآثار بعنوان: (**خلاصة تاريخ حياتي العلميّة والعمليّة**)[1]، وقسّمه الإبراهيميّ إلى مراحل تلخّص كلّ محطّات حياته العامرة نشاطا وحيويّة.

ففي المرحلة الأولى ذكر الإبراهيميّ الاسم واللّقب والميلاد والموطن والقبيلة والنّشأة والتربيّة والتعلّم، وفي المرحلة الثّانية تناول بالحديث شروعه في التّدريس والتّعليم بعد إجازته، وأخبر بخروجه إلى القاهرة ولقائه بعلمائها ومشايخها وأدبائها.

وفي المرحلة الثّالثة تحدّث عن خروجه من القاهرة قاصدا المدينة المنوّرة وعن لقائه لوالده ولبعض علماء الحجاز وعن حضوره حلقات العلم ومجالسه، والأخذ عن

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص272.

أبرز علماء الحرم المدنيّ، وذكر وخروجه إلى دمشق والأسباب الّتي دعت إليه.

وفي المرحلة الرّابعة تكلّم عن إلقائه للدّروس بالجامع الأمويّ، ثم عودته إلى الجزائر.

وفي المرحلة الخامسة ذكر أعماله في الجزائر بعد رجوعه من الحجاز والشّام وتأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وذكر التقاءه الأوّل بالإمام عبد الحميد بن باديس، وتفرّغ للحديث عن الجمعيّة وأعماله فيها؛ إذ هي أهمّ أعماله، وخلص إلى تعداد مؤلّفاته المختلفة.

وينهي الإبراهيميّ سيرته بخلاصة لسيرته لخّص فيها، بإيجاز، مراحل حياته ونشاطاته في عشرة نقاط.

وهناك، أيضا، نسخة أو نصّ ثالث للسّيرة مختلف بعض الشّيء عمّا تقدّم، قدّمه الإبراهيميّ في لقاء له بصحافيّ من مجلّة الشّبان المسلمين بالقاهرة، ونشر على شكل حوار في المجلّة في عددها 66 الصّادر في أوت (أغسطس) سنة 1962. وهو الوارد كذلك، في العدد الخامس من الآثار.[1]

وقد أثبته كاملا دون حذف الجزء الّذي ليست له صلة بموضوع السّيرة أو التّرجمة، وإن كان يعبّر عن رأي الإبراهيميّ في مسألة تربيّة الشّباب.

(1) المصدر السابق، ج5، ص298.

وقد عملت على إتمام المرحلة الأخيرة من حياته، وهي المرحلة الّتي تمتدّ من تاريخ رحلته الثّانيّة إلى الشّرق في مهمّات كلّف بها؛ أي من سنة 1952 إلى استقلال الجزائر 1962 إلى قبيل وفاته، وهو لم يشر إليها أو إلى جانب منها في السير الّتي تمت الإشارة إليها، بنصوص للإبراهيميّ وبياناته ونداءاته لمؤازرة الثّورة وخطبته في جامع كتشاوة، وهي أوّل خطبة فيه بعد الاستقلال بعد أن كان كاتدرائية طوال الحقبة الاستعماريّة، وأضفت بيانه الشّهير ببيان (يوم 16 افريل 1964)، لاعتقادي أنّ هذه النّصوص تبني هذا الجزء الأخير من سيرة الإبراهيميّ وتعبر عن موقفه، وهي أيضا بقلمه وبلسانه.

وختمت السّيرة أو التّرجمة بذكر تاريخ وفاته، وهو التّاريخ الّذي حدّده نجله في كتابه الآثار.

وارتأيت في الأخير، علاوة على ما تقدّم، أن أثبت نصا للإبراهيمي موجّها للشّباب، وهو بمثابة الوصيّة لهم، وهو النّص الموسوم بـ(**الشّباب الجزائريّ كما تمثّله لي الخواطر**) المذكور في الجزء الثّالث من الآثار، ليكون آخر ما يستقرّ في ذهن القارئ، من كلام الشّيخ الإبراهيميّ.

وهكذا، تتوزّع سيرة الإبراهيميّ المحرّرة بقلمه على هذه النّصوص/النّسخ الثّلاثة، وقد استوفت أهمّ محطّات حية الإبراهيميّ ومسيرته وما رغب هو نفسه في ذكره وتسجيله.

وقد كانت القيمتان التّاريخيّة والأدبيّة الّتي تزخر بهما سيرة الإبراهيميّ حافزا لي إلى الاشتغل على هذه النّسخ والنّصوص والنّظر إليها بعين المحقّق المدقّق وصياغة سيرة

مكتملة الجوانب ورسم صورة واضحة المعالم لهذه الشخصية العظيمة، ليتأمّلها القارئ ويتأسّى بها، وعسله يجد فيها ما يستنهض الهمم ويستفزّ الضّمائر.

وفي تقديم واقتراح سيرة الإبراهيميّ بهذا الحجم الصّغير في ورقاته وصفحاته والعظيم في معانيه ودلالاته واستخلاصها من الكمّ الكبير إتاحةً للفرصة لقراءتها بلا ملل والتّأمّل فيها بلا كلل.

ولا أعدّ هذا العمل بعيدا عن تخصّصي فهو وثيق الصّلة بالأدب فنّا وتاريخا ونقدا.

وأمّا عن عملي في هذه السّيرة، فقد كان بمثابة التّحقيق لسيرة الإبراهيميّ وذلك بالعودة إلى هذه النّصوص ونسخها في مظانّها من المصادر والمراجع المختلفة ومقارنة ومقابلة بعضها ببعض، والاحتكام إلى النّصوص والنّسخ الواردة في كتاب آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيميّ لأحمد طالب الإبراهيميّ، إذ عددت نصوص السّيرة فيه هي النّسخ الأصليّة والمتون أو المخطوطات الأساسيّة، وهي وإن لم تكن بخطّ المؤلّف فهي على حظ كبير من القيمة، وفي ضوئها قمت بتدقيق وضبط المفردات والتّراكيب وما نقص أو حذف أو ما وقع فيها من سهو وخطإ غير مقصودين، وإن لم تكن هناك اختلافات كبيرة بين النّسخ.

واستنادا إلى ما تقدّم، سنجعل عنوان سيرته هو العنوان الّذي اختاره الإبراهيمي لنصّ السّيرة الأوّل، وهو (من أنا؟)، ونذكر النّصوص الثّلاثة كما تمّت الإشارة

إليها، ونضيف في نهاية السّيرة أخبار أيّامه الأخيرة ووفاته مع نموذج من نصوصه الموجّهة إلى الشّباب الجزائري.

ومن هذا المنظور، فقد بنيت وأقمت نصّا للسّيرة يتولّى الإبراهيميّ فيه التّرجمة لحياته المشرقة العلميّة والعملية والتّلخيص لسيرته الذّاتية المضيئة الحافلة بالعطاء، فيقدّم ذاته إلى قارئه في كلّ مكان وفي كلّ زمان، فيسمع صوته لا صدى صوته، ويقصّ سيرته المذهله ويحكي قصّته العجيبة في سرد متّصل محلّق رائع وفي كلمات شفّافة دالّة راقية، لا تحوج القارئ إلى واسطة شارحة، إنها كلمات بيّنة تنبثق من القلب لتعبر إلى القلب، إنها كلمات عاطرة معبّرة عن مواقف راسخة.

يحدّثنا الإبراهيميّ في سيرته **(من أنا؟)** فتدهشنا التّجربة المتميّزة وتذهلنا الشّخصيّة المتفرّدة، ويفتح لنا نافذة إلى آفاقه الرّحبة السّامية، لنتطلّع إليها بإعجاب وإكبار لهذا الفتى... ولهذا الشّاب... ولهذا الكهل... ولهذا الشّيخ العلاّمة الدّاعية... العالم العامل... المجاهد المصلح المربّي.. النّاقد الأديب.. نادرة عصره ونسيج وحده.

فندرك، بجلاء، أنّنا أمام رجل عظيم فذّ.. صدق ربّه وصدق شعبه وصدق ذاته، إنّه رجل قمّة ورجل أمّة.... جاء على قدر لينفّذ مهمّة... ويعمل لانقشاع الغمّة.. جهر بالحقّ .. لم يخش فلانا.. ولم يستكن لسلطان.. إلى أن توفّاه الرّحمان.. ووري جثمانه في تربة خير الأوطان.

وليت الشّباب الّذي تمثّله الإبراهيميّ بالقول[1]:

أتمثّله متساميًا إلى معالي الحياة، عربيدَ الشباب في طلبها، طاغيًا عن القيود العائقة دونها، جامحًا عن الأعنَّة الكابحة في ميدانها، متَّقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، وشهامة الفؤاد، ونشاط الجوارح. أتمثله مقداما على العظائم في غير تهوّر، محجامًا عن الصغائر في غير جبن، مقدرًا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أو الفكر آخر العمل.

أتمثله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كل عربي أخًا له، أخوة الدم، وكلَّ مسلم أخًا له، أخوة الدين، وكل بشر أخًا له أخوة الإنسانية، ثم يُعطي لكل أخوة حقها فضلا أو عدلا.

أتمثله حلِفَ عمل، لا حليف بطالة، وحلس معمل، لا حلس مقهى، وبطل أعمال، لا ماضغَ أقوال، ومرتاد حقيقة، لا رائد خيال.[2]

---

(1) المصدر السابق، ج3، ص511.

(2) نص الإبراهيمي (الشّباب الجزائريّ كما تمثّله لي الخواطر) ملحق في صفحة 78.

وليت النّشء الّذي ناداه ابنُ باديس، من قبل، بالقول[1]:

يَا نَشءُ أَنْـتَ رَجَـاؤُنَــا وَبِـكَ الصَّبـاحُ قَدِ اقْـتَربْ
خُـذْ لِلحَـيـاةِ سِلاَحَـها وَخُـضِ الخُطُوبَ وَلاَ تَهـبْ
وَارفعْ مَنارَ العَدْلِ وَالإِحْسـان وَاصْـدُمْ مَـن غَصَــبْ
وَاقلَعْ جُـذورَ الخَـائـنينَ فَـمنْـهُم كُلُّ الـعَـطَـبْ
وَأَذِقْ نفُوسَ الظَّـالِـمِينَ سُـمًّـا يُـمْـزَج بالـرَّهَـبْ
وَاهْـزُزْ نـفـوسَ الجَـامِدينَ فَرُبَّـمَـا حَـيِي الْـخَشَبْ

ليت هذا وذاك، ليتهما يتعلّمان في مدرسة الإبراهيمي ويتخرّجان في جامعة الإبراهيميّ ويخدمان بكلّ إخلاص وتفانٍ وطن الإبراهيميّ.

برج بوعريريج في: 22 **سبتمبر 01/2017 محرّم** 1439

د رابح بن خوية

.

(1) عمار طالبي: آثار بن باديس، ج1، مج2، الشركة الجزائرية، الجزائر، ط3، 1417هـ-1997م، ص571.

مَنْ أنَا؟

أنا محمد البشير بن محمد السّعدي بن عمر بن محمد السّعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيميّ نسبة إلى قبيلة عربيّة ذات أفخاذ وبطون تعرف بـ"أولاد أبراهم"، وهي إحدى قبائل سبع متجاورة في سفوح الأطلس الأكبر الشّماليّة المتّصلة بقمم جبال أوراس من الجهة الغربيّة، وكلّ ذلك واقع في مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري، وتجتمع قبيلتنا مع هذه القبائل السّبع في يحيي بن مساهل ذي النّسب الشّريف المتواتر بالسّماع الفاشي، والثّابت عند أئمّة النّسابين أمثال الإمام عبد الرّحمن الصبّاغ البجاوي صاحب كتاب الفصول المهمّة، ويقع في عمود نسبنا خمسة من العلماء الأجلاّء، عاشوا في ما بين المائة التّاسعة والمائة الثّالثة عشرة للهجرة، وكلّهم كتب هذا النّسب وأثبته بالأدلّة التّاريخيّة الممكنة، وآخرهم جدّي الأدنى الشّيخ عمر الإبراهيميّ وله فيه كتاب قرأته وأنا صغير.

ومهما يكن من أمر هذا الشّرف النّسبي الّذي ورثت عدم الاهتمام به من عمّي الّذي ربّاني وعلّمني، فممّا لا شكّ فيه أن نسبنا عربيّ صميم، إن لم يكن في قريش فهو في هلال بن عامر، لأنّ موطننا الحاضر من المجالات الأولى الّتي

كان لبني هلال فيها مضطرب واسع لأوّل هجرتهم من صعيد مصر في أواسط المائة الخامسة.

مَوْلِدِي:

ولدت عند طلوع الشّمس من يوم الخميس في الرّابع عشر من شهر شّوال سنة ستّ وثلاثمائة وألف 1306 هجريّة، الموافق للثّالث عشر جوان سنة 1889 ميلاديّة، سمعت ذلك من عمّي الآتي ذكره وقرأته بخطّ جدّي الأدنى على ظهر كتاب من كتبه سجّل فيه مواليد الأسرة ووفياتها، وفيها مواليد أخواتي اللاّئي ولدن قبلي، ولم يعش لوالدي من الذّكور غيري.

نَشأَتِي وتعلّمي:

نشأت على ما نشأ عليه أبناء البيوتات العلميّة الرّيفيّة من طرائق الحياة، وهي تقوم دائما على البساطة في المعيشة والطّهارة في السّلوك والمتانة في الأخلاق، والاعتدال في الصّحة البدنيّة، كلّ ذلك لبعد أريافنا في ذلك العهد عن الحضارة الجليبة ومواقعها من المدن، فلمّا بلغت التّاسعة أصيبت رجلي اليسرى بمرض، وكان للإهمال والبعد عن التّطبيب المنظّم أثر كبير في إصابتي بعاهة العرج في رجلي، وقد أنساني ألمها والحزن عليها ما كنت منكبّا عليه من التهام كتب كاملة بالحفظ، فكان لي في ذلك أعظم سلوى عن تلك العاهة، وفي ما عدا تلك العاهة فأنا مدين لتربيتي الرّيفيّة في كلّ ما أتمتّع به إلى الآن من قوى بدنيّة وفكريّة وخلقيّة.

قام على تربيتي وتعليمي من يوم درجت عمّي شقيق والدي الأصغر الشّيح محمد المكّي الإبراهيميّ عالم إقليمنا المعروف بوطن ((ريغة)) وفريد عصره في إتقان علوم اللّسان العربيّ، وكانت الأسر العلميّة بوطننا قائمة على تقليد قديم متوارث، وهو أنّها تقوم بوظيفة المدرسة المعروفة، فيأوي إليها المنقطعون لطلب العلم عشرات ومئات، وتتكفل الأسرة بإطعام الغرباء منهم مهما كان عددهم احتسابا، ويقوم عالم الأسرة أو علماؤها بتعليمهم دروسا منظّمة على ساعات اليوم، لكتب غالبها ممّا يدرّس في الأزهر إلى عهد قريب وإلى الآن، ومن هذه الأسر أسرتنا الّتي توارثت العلم من خمسة قرون مضت في ما هو معروف، ومن نوابغها المعروفين الّذين ما زالت أسماؤهم دائرة على الألسنة، المعدودين من أعلام الفتيا والتّدريس والانقطاع للنفع ابتغاء مرضاة الله: الشّيخ محمد الشّريف العمريّ الإبراهيميّ والشّيخ المبارك الإبراهيميّ، والشّيخ القريشيّ الإبراهيميّ، وكلّ هؤلاء وغيرهم عاشوا في القرون الثّلاثة الأخيرة.

تَعلُّمي:

لم أفارق في تعلّمي بيت أسرتي، فهي مدرستي الّتي تعلّمت فيها وعلّمت، أخذني عمّي بالتّربيّة والتّعليم منذ أكملت السنة الثّالثة، وكنت ملازما له حتّى في النّوم والطّعام، فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علميّة، وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات حتّى لا أملّ، واختصصت بذاكرة وحافظة خارقتين للعادة، وعرف رحمة الله عليه كيف يصرفهما فيّ، فحفظت القرآن

حفظا متقنا في آخر الثّامنة من عمري، وحفظت معه - وأنا في تلك السّن، نتيجة للتّنويع الّذي ذكرته- ألفيّة ابن مالك وتلخيص المفتاح، وما بلغت العاشرة حتّى كنت أحفظ ألفيتَي العراقيّ في الأثر والسّير، ونظم الدول لابن الخطيب ومعظم رسائله المجموعة في كتابه ريحانة الكتاب، ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس كابن شهيد وابن أبي الخصال وأبي المطرف ابن أبي عميرة، ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق كالصابي والبديع، مع حفظ المعلّقات والمفضّليات وشعر المتنبّي كلّه وكثير من شعر الرضي وابن الرّومي وأبي تمّام والبحتري وأبي نواس، كما استظهرت كثيرا من شعر الثّلاثة جرير والأخطل والفرزدق، وحفظت كثيرا من كتب اللّغة كاملة كالإصلاح والفصيح، ومن كتب الأدب كالكامل والبيان وأدب الكاتب، ولقد حفظت وأنا في تلك السّن أسماء الرّجال الّذين ترجم لهم نفح الطّيب وأخبارهم وكثيرا من أشعارهم، إذ كان كتاب نفح الطّيب-هو الكتاب الّذي تقع عليه عيني في كلّ لحظة منذ فتحت عينيّ على الكتب، وما زلت أذكر إلى الآن مواقع الكلمات من الصّفحات وأذكر أرقام الصّفحات من تلك الطّبعة، وكنت أحفظ عشرات الأبيات من سماع واحد ممّا يحقّق ما نقرأه من سلفنا من غرائب الحفظ. وكان عمّي يشغلني في ساعات النّهار بالدّروس المرتّبة في كتب القواعد وحدي أو مع الطّلبة ويمتحنني ساعة من آخر كلّ يوم في فهم ما قرأت فيطرب لصحّة فهمي، فإذا جاء اللّيل أملى عليّ من

حفظه -وكان وسطا- أو من كتاب ما يختار لي من الأبيات المفردة أو من المقاطيع حتّى أحفظ مائة بيت، فإذا طلبت المزيد انتهرني وقال لي: إن ذهنك يتعب من كثرة المحفوظ كما يتعب بذلك من حمل الأثقال، ثم يشرح لي ظواهر المعاني الشّعريّة، ثمّ يأمرني بالنّوم رحمه الله.

مات عمّي سنة 1903 ولي من العمر أربع عشرة سنة، ولقد ختمت عليه دراسة بعض الكتب وهو على فراش المرض الّذي مات فيه، وأجازني الإجازة المعروفة عامّة، وامرني بأن أخلفه في التّدريس لزملائي الطّلبة الّذين كان حريصا على نفعهم، ففعلت ووفّق الله وأمدتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها، فتصدّرت دون سنّ التّصدّر، وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخا في سنّ الصّبا، وما أشرفت على الشّباب حتّى أصبت بشر آفة يصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنّفس، فكنت لا أرى نفسي تقصر عن غاية حفّاظ اللّغة وغريبها وحفّاظ الأنساب والشّعر، وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طبع أدبيّ مرح كريم، ورحلة إلى الشّرق كان فيها شفائي من تلك الآفة.

رحلتي إلى الشّرق:

رحلتُ من الجزائر إلى الحجاز سنة 1911 وعُمري إحدى وعشرون سنةً ملتحقا بوالدي الّذي اتّخذ المدينة قرارا له وأمرني بالالتحاق به، فمررت على القاهرة واقمت بها ثلاثة أشهر، طُفْتُ بها بحلق الدّروس في الأزهر، وزرت شوقي الّذي كنت راوية لشعره، وحافظ

إبراهيم في مقهى من مقاهي القاهرة، والشّيخ رشيد رضا في دار الدّعوة والإرشاد، وجماعة من علماء الأزهر، ثم ألقيت الرّحال بالمدينة حيث استقرّ والدي، وعكفت على القراءة والإقراء، فكنت ألقي عدّة دروس متطوّعا وأتلقّى دروسا في التّفسير والحديث، وأعانتني تلك الحافظة على استيعاب أسماء الرّجال وحفظ كتب كاملة في الحديث، وكنت أغشى ثلاث مكتبات جامعة غنيّة بعشرات الآلاف من المخطوطات النّادرة: مكتبة شيخ الإسلام ومكتبة السّلطان محمود ومكتبة شيخنا الشّيخ الوزير التّونسيّ مع مكتبات أخرى شخصيّة، فبلغت منها غايتي حفظا واطّلاعا مدّة خمس سنوات وشهور.

هذا الطّور من حياتي هو الّذي تفتّح فيه ذهني للأعمال العامّة، فشاركت برأيي في الآراء المتعلّقة بالسّياسة العامّة للدّولة العثمانيّة، وفي علاقة العرب بها، وفي الإصلاح العلميّ بالحرم المدنيّ، وباشرت هذا الأخير بنفسي مع ثلّة من شباب الطّلبة المتنوّرين، وقد كاد ينجح ويؤتي ثمراته لولا أن فاجأتني الحرب العالميّة الأولى ثمّ ثورة الشّريف حسين بن علي الّتي كنت من المقاومين لها بقلمي ولساني، ثمّ كانت هي السّبب في إجلاء سكّان المدينة عنها إلى الشّام والأناضول.

إِنْتقَالِي إلى دِمَشِق:

كنت أنا ووالدي من المرحّلين من المدينة إلى الشّام في النّصف الأخير من سنة 1916، فاستقررت بدمشق في حالة يرثى لها، واتّصل بي إثر وصولي جماعة من أهل

العلم والفضل، واتّصل بي جمال باشا بواسطة عون من أعوانه هو نقيب الأشراف السّابق يريدني على أن أخدم سياسته بقلمي ولساني، فتجافيت عن ذلك بتحايل لطيف، واتّصل بي كثير من أصحاب المدارس الأهليّة العربيّة، فقبلت التّعليم عندهم لأقوم بحاجتي وحاجة والدي وأتباعنا، ثم حملني جمال على أن أكون أستاذا للعربيّة في "السّلطاني" وهو المدرسة الثّانويّة الأولى بدمشق، وما كدت أباشر عملي فيها حتّى ذهب جمال باشا ثمّ ذهب السّلطان التّركيّ بعده بقليل، وأصبح التّعليم الرّسميّ كلّه عربيّا، فأصبحت بذلك أستاذا للآداب العربيّة وتاريخ اللّغة وأطوارها وفلسفتها بالمدرسة السّلطانيّة الأولى، واطمأنت بي الدّار إذ وقعت على وظيفتي الطّبيعيّة، وتخرّج على يدي في ظرف سنة واحدة جماعة من الصّفوف الأولى هم اليوم في طليعة الصّفوف العاملة في حقل العروبة.

رُجُوعِي إلى الجَزائر:

كان الأمير فيصل بن الحسين حينما دخل دمشق يريدني على الرّجوع إلى الحجاز لأتولّى إدارة التّعليم فيه، وكان يلحّ عليّ في ذلك كلّما لقيته، وهو صديق لي منذ كنا نجتمع بالمدينة في حضرة أخيه الأمير علي، وأنا غير راض عن سياسة أبيه وغير مطمئن إلى حكمه وإدارته، فكنت أطاوله في ذلك وأعلله، ثم اضطربت أحوال سوريا في النّصف الأخير من 1919 وتبيّن لي مصير فيصل ومصير سوريا فقلّبت الرّأي على وجوهه وعواقبه، وجاءتني من الجزائر

أخبار متواترة تفيد أنّ الجوّ فيها أصبح صالحا للعمل المثمر في العلم وفي السّياسة، فعقدت العزم على الرّجوع إلى الجزائر، وقد كنت تزوجت في تلك المدّة بدمشق ومات والدي وولدي بها.

رجعت إلى الجزائر في أوائل سنة 1920 على نيّة القيام بعمل علميّ عام يعقبه عمل سياسيّ، فوجدت الجوّ أصلح ممّا تركته سنة 1911 بسبب تأثير الحرب وويلاتها في النّفوس، ولكنّ الاستعداد في الأمّة لم يكن كافيا للقيام بعمل يعتمد عليها، فاتّفقت أنا وجماعة من إخواني العلماء الأحرار على أن نبتدئ بإكمال الاستعداد في الأمّة وقرّرنا الوسائل المؤدّيّة إلى ذلك، وكان الجهد شاقّا والنّتائج بطيئة، ولكنّنا صبرنا عشر سنوات مع مواصلة ذلك الجهد الشّاق، وجاءت سنة 1930 حدّا فاصلا بين الماضي والحاضر، ففيها تمّ للاحتلال الفرنسيّ من العمر مائة سنة، وأقامت فرنسا المهرجانات ابتهاجا بذلك، وسخطت الأمّة العربيّة الإسلاميّة على ذلك، ورأت في بعض موادّ المهرجان إهانةً سافرة لها وامتهانًا لِمَجْدِهَا وجرحًا لكرامتها وافتراءً على تاريخها، واستغللنا نحن ذلك كلّه في إثارة نخوتها وإيقاظ إحساسها وإكمال استعدادها للعمل، وفشلت تلك المهرجانات بأعمالنا وبعوامل أخرى خارجيّة، وخسرت فرنسا آمالها المرجوّة منها كما خسرت الأموال الطّائلة التي أنفقتها عليها.

تأسيسُ جَمْعِيَّة العُلَمَاءِ الجَزائريِّين:

تأسّست جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في سنة ١٩٣١، وكانت عوامل تكوينها طبيعيّة بسيطة عن قصد، لئلاّ تثير من الاهتمام ما يدعو إلى مقاومتها قبل أن تستوي على سوقها فتكون الضّربة القاضية عليها، ولو مضي عليها إذ ذاك لما استطعنا تجديدها في عشرات السّنين، وعشنا في ظلّ تلك البساطة سنة ثبّتنا فيها قواعد العمل، واتّصلنا بطبقات الأمّة ووثّقنا فيها العلائق بها، وما جاءت السّنة الثّالثة حتّى بدأت الأيدي المتدسسة تعمل عملها ولكنّها لم تؤثر شيئا لأنّ مبادئ الجمعيّة تغلغلت في ذلك الزّمن القصير إلى مستقرّ العقيدة من نفوس من كمل استعدادهم من الأمّة.

عَمَلِي في الجَمْعيَّة:

اخجل حين أتحدّث عن عملي في الجمعيّة، فلأترك الشّهادة للواقع الّذي عرفه من عرفه، وسيعرفه كلّ من بحث عنه، وإنّما أنا معتزّ بالثّقة الّتي أولانيها إخواني من يوم تكوّنت هذه الجمعيّة، فلم أزل وكيلها من يومئذ نائبا عن الرّئيس الإمام عبد الحميد بن باديس باني نهضة الجزائر بجميع فروعها، وكنت أقوم عليه بكثير من الأعمال إلى أن توفّاه الله في السّادس عشر أبريل 1940، وأنا في الاعتقال، فانتخبني إخواني رئيسا للجمعيّة، وما زلت متشرّفا بهذه الرّئاسة إلى الآن، وكان من أعمالي بعد خروجي من الاعتقال ثلاث سنوات أن أسّست في سنة وبعض السّنة نحو سبعين مدرسة عربيّة حرّة متفرّقة في

جهات القطر بمال الأمّة، وقد وصل عدد المدارس الابتدائيّة الحرّة الّتي أسّستها الجمعيّة بسعيي وإشرافي وبمال الأمّة الخالص نحو مائة وخمسين مدرسة منها الضّخم الفخم ومنها دون ذلك، وتحتوي هذه المدارس على نحو خمسين ألف تلميذ وعلى نحو أربعمائة معلّم، يتوّجها معهد ثانويّ فخم يأوي نحو ألف تلميذ، وهو بجميع مرافقه ملك للأمّة.

مَوقِفُ الاسْتِعمَارِ منّي:

يقبح بالمجاهد أن يذكر للنّاس ما أصابه في سبيل الله من بلاء، ولكنّني مطلوب بهذا كجزء من تاريخ حياتي، فلأذكر -استحياءً- لقرّاء "المصوّر" بعض ذلك.

لا أذكر الملاحقات الجزئيّة والمضايقات فتلك طبيعة الاستعمار مع كل عامل على غير هواه، وإنّما أذكر الكلّيات الكبرى، فقد أصدرت الحكومة الفرنسيّة أمرا باعتقالي في أوائل الحرب العالميّة الثّانية بدعوى أنّ وجودي خطر على الأمن العامّ، وتمّ نفيي عسكريًا يوم 10 افريل 1940 إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني، ودام ذلك النّفيّ ثلاث سنوات إلاّ قليلا، ولما أطلق سراحي وضعت تحت المراقبة الإداريّة سنوات إلى أن انتهت الحرب، وفي يوم انتهاء الحرب دبّر المعمّرون مذابح 8 ماي 1945، وفي ليلة 27 منه كبست داري بقوّة عسكريّة، ففتّشوا داري وساقوني إلى السّجن العسكريّ بالعاصمة، في غسق النّيل وبصورة مزعجة محاطا بقوات أخرى من داري إلى السّجن وبينهما نحو 8 كيلومترات، ولبثت في زنزانة ضيّقة تحت الأرض لا أرى

الضّوء ولا استنشق هواء الحياة نحو سبعين يوما، وكانوا لا يخرجونني منها إلا ربع ساعة في 24 ساعة مع حراسة مشدّدة، فلمّا انهارت صحّتي نقلوني إلى حجرة منفردة على وجه الأرض وفيها بعض وسائل الحياة، ولما أكملت مائة يوم نقلوني ليلا في طائرة خاصّة مخفورا إلى السّجن العسكريّ بمدينة قسنطينة حيث كان مسرح الحوادث الدّامية الفظيعة التي ارتكبتها عصابات المعمّرين ضدّ الأهالي الآمنين، وكان هذا النّقل تمهيدا لمحاكمتي في محكمة عسكريّة على الحوادث الّتي دبّرها الاستعمار وأهله، وكنت إذا اشتدّ علي المرض نقلوني إلى المستشفى العسكريّ تحت الحراسة الشّديدة في حجرة منفردة، ولبثت في السّجن العسكريّ ومستشفاه أحد عشر شهرا، ولبث في المعتقلات عشرات الآلاف من رجال الجمعيّة وأنصارها وأتباع الحركات الوطنيّة مثل تلك المدّة، ثمّ بدا للاستعمار فأطلق سبيل الجميع باسم العفو العامّ لا باسم الرّجوع إلى الحق.

وبعد خروجنا من السّجون والمعتقلات، وبعد فتح المدارس الّتي عطّلوها نتيجة لتلك الحكاية المدبّرة، رجعت إلى عملي من تعمير المدارس القديمة وتأسيس مدارس جديدة، حتّى بلغت العدد الّذي ذكرناه، ونجحت في إحياء اللّغة العربيّة نجاحا منقطع النّظير.

رُجُوعِي إلَى الشَرِق:

في يوم 7 مارس سنة 1952 خرجت من الجزائر إلى الشّرق في رحلة منظّمة البرنامج واضحة القصد، وأقمت في القاهرة أسبوعا ثمّ سافرت إلى باكستان فأقمت بها قريبا من ثلاثة

أشهر استوعبت فيها زيارة المدن الباكستانيّة من كراتشي إلى كشمير وما بينهما، وألقيت في هذه المدن نحو سبعين محاضرة في الدّين والاجتماع والتّاريخ وأمراض الشّرق وعلاجها، ثمّ رحلت عنها إلى العراق، فاستوعبت مدنها من البصرة إلى حدود تركيا وإيران من جبل الأكراد وألقيت فيها عشرات المحاضرات الاجتماعيّة والدّروس الدّينيّة، ثمّ رحلت عنها بعد نحو ثلاثة أشهر إلى الحجاز في حجّ سنة 1952 نفسها، وألقيت كثيرا من المحاضرات والأحاديث، ثمّ رجعت إلى القاهرة يوم 24 أكتوبر من تلك السّنة، ثمّ ترددت منها على العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس مرّات متعدّدة وألقيت في جميعها كثيرا من المحاضرات.

الغرض من هذه الرّحلات أمران رئيسيان: الأوّل مشاركة دعاة الخير في هذا الشّرق في ما يدعون إليه، وأنا أرى أن هذا فرض عليّ يجب أن أؤدّيه، والثّاني التّعريف بالجزائر المنسيّة من أخواتها، ودعوة الحكومات الإسلاميّة والعربيّة على الخصوص إلى إعانتها في نهضتها الثّقافيّة.

أمّا الغرض الأول فقد حقّقته بنفسي لأنّني أملكه، وأمّا الغرض الثّاني فقد تحقّق جزء يسير منه، وأنا ساع في تحقيقه على صورة أكمل، والجزء الّذي تحقّق هو أن كثيرا من الحكومات العربيّة قررت قبول بعثات من تلامذة جمعيّة علماء الجزائر يدرسون في معاهدها على نفقتها، ولنا اليوم بفضل هذه المساعي خمسة عشر طالبا في العراق وخمسة عشر طالبا في الكويت وثلاثون طالبا في سوريا ونحو خمسين طالبا في مصر.

وقد كوّنت في القاهرة مكتبا باسم الجمعيّة ليشرف على هذه البعثات، وستتّسع أعماله باتّساع البعثات وتزايد أعدادها، ولي مع الحكومات العربيّة وعود، إن تمّت فسيبلغ عدد الطّلاب إلى مئات، وتسدّد جامعة الدّول العربيّة بعض نفقات المكتب.

أولاَدِي:

أسرتي الخاصّة لم تزل بالجزائر، وقد عاش لي من الأولاد ابنان وبنتان، وأكبر الولدين محمد يباشر أعمالا طفيفة من التّجارة يستعين بها على حاجيات الأسرة، وقد قطعته عن الدراسة -بعد أن وصل إلى سنة البكالوريا- عوائق منها مرض خطير معطل ألّم به، ومنها اضطراره إلى القيام بالعائلة في سنوات اعتقالي، ونصيبه في الدّراسات العربيّة والفرنسيّة قوي وافر، وأمّا أصغر الولدين أحمد فقد درس الطّبّ في جامعة الجزائر ودرس العربيّة في البيت، وحظّه منها لا يقلّ عن حظّه من الفرنسيّة، وهو في هذه السّنة يكمّل السّنة الخامسة للطّب في جامعة باريز، ويحضّر الأطروحة في السّنة الآتية، ويستعدّ للتخصّص، وهو في الثّالثة والعشرين من عمره، وسيكون من الأوائل الّذين تخرّجهم جامعة الجزائر في هذه السّن.

حَالَتِي المَادّيَة:

ليس لي مال موروث ولا مكتسب، وأهلي يعيشون في الجزائر على مرتّب شهريّ من صندوق الجمعيّة، تضايقهم فيه نفقات الولد الّذي يدرس في باريس، أمّا أنا فلا أدري الحكمة الّتي بنى عليها محرّر "المصوّر" هذا السّؤال المحرج،

ولا أدري أأجيبه بالواقع؟ أم أجيبه بظنّ النّاس وتقوّلهم؟ فَلأُجِبْه بالاثنين: فالنّاس يظنّون أنّني أتقاضى مرتّبا من الحكومة السّعوديّة أو من غيرها من الحكومات العربيّة. وليس لهذه الظّنون حقيقة ولا ظلّ من الحقيقة، أمّا الواقع – وسامح الله الأخ الّذي أدمج هذا السّؤال في الأسئلة فأحرجني بالسّؤال، وأحوجني إلى الإجابة...– الواقع يا سيدي السّائل أنّني أعيش بالدَّين (بفتح الدّال)، ولي في خلاص هذا الدّين طريقة وهي قضاء الدّين بالدّين، كما قالوا في من يغسل الدم بالدم، ولا أدري أيؤاخذ القانون على هذا؟ وما دخل القانون إذا لم تقع مطالبة؟ على أن إقامتي بمصر مؤقتة، وقد دخلتها شريفا وسأخرج منها إن شاء الله أشرف ممّا دخلتها."[1]

***

(1) المصدر السابق، ج 5، ص163.

خُلاصةُ تَارِيخِ حَيَاتي العِلْمِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ

المَرْحَلَةُ الأُولَى:

أنا محمد البشير الإبراهيمي، ولدت يوم الخميس عند طلوع الشّمس في الرّابع عشر من شهر شوّال سنة ستّ وثلاثمائة وألف، ويوافق الثّالث عشر من يونيو سنة 1889، كما رأيت ذلك مسجّلا بخطّ جدّي لأبي الشّيخ عمر الإبراهيميّ -رحمه الله- في سجلّ أعدّه لتسجيل مواليد الأسرة ووفياتها.

قبيلتنا تُعرف بأولاد إبراهيم بن يحيى بن مساهل، وترفع نسبها إلى إدريس بن عبد اللّه الجذم الأول للأشراف الأدارسة، وإدريس هذا -ويُعرف بإدريس الأكبر- هو الّذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد وقعة 'فخ' بين العلويين والعبّاسيين، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغربين: الأقصى والأوسط، ونسبنا هذا مستفيض بين سكّان الأطلس أوراس وسفوحه الجنوبيّة إلى الصحارى، والشّماليّة إلى التّلول، ولأجدادنا كتابات متناقلة عن هذا النّسب.

وموطننا الّذي تقلّب فيه أجدادنا في تاريخ ضارب في القدم هو السّلاسل الغربيّة المتفرّعة من جبل أوراس، وهي قمم تفصل بينها مسالك أودية وطرق هابطة من التّلول إلى الصحراء، وموقعها الغرب المائل للجنوب لمدينة قسنطينة عاصمة المقاطعة الشّرقيّة للقطر الجزائريّ.

وبيتنا إحدى البيوتات الّتي حفظت رسم العلم وتوارثته قرونًا من لدن خمول بجاية وسقوطها في القرن التّاسع الهجريّ، وقد كانت بجاية دار هجرة للعلم وخصوصًا للأقاليم المتاخمة لها مثل إقليمنا، وقد خرج من عمود نسبنا بالذّات في هذه القرون الخمسة علماء في العلوم العربيّة، ونشروها بهمّة واجتهاد في الأقاليم المجاورة لإقليمنا، ومنهم من هاجر إلى القاهرة في سبيل الاستزادة من العلم والتوسّع فيه -على صعوبة الهجرة إذ ذاك- ومن آثار الاتّصال بالقاهرة أنّهم بعد رجوعهم سمّوا أبناءهم بأسماء كبار مشايخ الأزهر، وأنا أدركت في فروع بيتنا من تسمّى بالأمير والصاوي والخرشي والسّنهوري.

نشأت في بيت والدي كما ينشأ أبناء بيوت العلم، فبدأت في التعلّم وحفظ القرآن الكريم في الثّالثة من عمري على التّقليد المتّبع في بيتنا الشائع في بلدنا، وكان الذي يعلّمنا الكتابة ويلقّننا حفظ القرآن جماعة من أقاربنا من حفّاظ القرآن، ويشرف علينا إشرافًا عاليًا عالم البيت بل الوطن كلّه في ذلك الزّمان، عمّي شقيق والدي الأصغر الشّيخ محمد المكّي الإبراهيميّ -رحمه الله- وكان حامل لواء الفنون العربيّة غير مدافع، من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذ كلّ ذلك عن البقيّة الصّالحة من علماء هذه الفنون بإقليمنا، منهم العلاّمة المتقن الشّيخ ربيع قري اليعلاوي، ومنهم العلاّمة الشّيخ محمد أبو القاسم البُوجْلِيلِي، ومنهم العلاّمة الشّيخ محمد أبو جمعة القُلِّي، خاتمة المتبّحرين في العربيّة والفقه، ولم يكن هؤلاء

العلماء رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجماعات العلميّة التّاريخيّة كفاس وتونس والقاهرة، وإنّما كانوا يتوارثون العلوم الإسلاميّة طبقة عن طبقة إلى الأجيال المتخرّجة من مدن العلم الموجودة بوطننا كبجاية، وقلعة بني حمّاد، وكلتاهما قريبة من مواطننا، وكلتاهما كانت منارًا للعلم ومهجرًا لطلابه، ومطلعًا لشموسه. إلى الفترة التي تبدأ بالاحتلال التّركي، وكان أئمة العلم لا يعتمدون في تخرّجهم على الشّهادات الرّسميّة، وإنّما كانوا يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الّذين يأخذون عنهم.

فلمّا بلغت سبع سنين استلمني عمّي من معلّمي القرآن وتولّى تربيتي وتعليمي بنفسه، فكنت لا أفارقه لحظة حتّى في ساعات النّوم، فكان هو الذي يأمرني بالنّوم، وهو الّذي يوقظني منه، على نظام مطّرد في النّوم والأكل والدّراسة، وكان لا يخليني من تلقين حتّى حين أخرج معه وأماشيه للفسحة، فحفظت فنون العلم المهمّة في ذلك السّن مع استمراري في حفظ القرآن، فما بلغت تسع سنين من عمري حتّى كنت أحفظ القرآن مع فهم مفرداته وغريبه.

وكنت أحفظ معه ألفيّة ابن مالك ومعظم الكافية له، وألفية ابن معطي الجزائري وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر، وأحفظ جمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني، ورقم الحلل في نظم الدّول لابن الخطيب، وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد اللّه بن خميس التّلمساني، شاعر المغرب والأندلس في المائة السّابعة،

وأحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس مثل ابن شهيد، وابن برد، وابن أبي الخصال، وأبي المطرف بن أبي عميرة، وابن الخطيبين، ثمّ لفتني عمّي إلى دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، فحفظت صدرًا من شعر المتنبّي، ثم استوعبته بعد رحلتي إلى الشّرق، وصدرًا من شعر الطّائيين، وحفظت ديوان الحماسة، وحفظت كثيرًا من رسائل سهل بن هارون وبديع الزّمان، وفي عنفوان هذه الفترة كنت حفظت بإرشاد عمّي كتاب كفاية المتحفّظ للأجدابيّ الطّرابلسيّ، وكتاب الألفاظ الكتابيّة للهمذاني، وكتاب الفصيح لثعلب، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السّكيت، وهذه الكتب الأربعة هي الّتي كان لها معظم الأثر في ملكتي اللّغويّة.

ولم يزل عمّي -رحمة الله- يتدرّج بي من كتاب إلى كتاب تلقينًا وحفظًا ومدارسة للمتون والكتب الّتي حفظتها حتّى بلغت الحادية عشرة، فبدأ لي في درس ألفيّة ابن مالك دراسة بحث وتدقيق وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصّغيرة قراءة تفهّم وبحث، وكان يقرئني مع جماعة الطّلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك، ويقرئني وحدي، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع، ويقرئني على ضوء الشّمع، وعلى قنديل الزّيت وفي الظّلمة، حتّى يغلبني النّوم، ولم يكن شيء من ذلك يرهقني، لأنّ الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيّرة، وذهنًا صيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة، ولما بلغت أربع عشرة سنة، مرض عمّي مرض الموت، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش

الموت، بحيث أنّي ختمت الفصول الأخيرة من ألفيّة ابن مالك عليه وهو على تلك الحالة.

المَرحَلةُ الثَانِية :

ولما مات عمي، شرعت في تدريس العلوم الّتي درستها عليه، وأجازني بتدريسها، وعمري أربع عشرة سنة، لطلبته الّذين كانوا زملائي في الدّراسة عليه، وانثال عليّ طلبة العلم من البلدان القريبة منّا، والتزم والدي بإطعامهم والقيام عليهم كالعادة في حياة عمّي، وربّما انتقلت في بعض السّنين إلى المدارس القبلية القريبة منّا لسعتها واستيعابها للعدد الكثير من الطّلبة وتيسّر المرافق بها للسّكنى، ودمت على تلك الحال إلى أن جاوزت العشرين من عمري، فتاقت نفسي إلى الهجرة إلى الشّرق، واخترت المدينة المنوّرة لأنّ والدي سبقني إليها سنة 1908 فرارًا من ظلم فرنسا، فالتحقت به متخفّيًا أواخر سنة 1911 كما خرج هو متخفيًا، ومررت في وجهتي هذه بالقاهرة، فأقمت بها ثلاثة أشهر، وحضرت بعض دروس العلم في الأزهر وعرفت أشهر علمائه، فممّن عرفته وحضرت دروسه، الشّيخ سليم البشري، والشّيخ محمد بخيت، حضرت درسه في البخاري في رواق العباسي، والشّيخ يوسف الدجوي حضرت درسه في البلاغة، والشّيخ عبد الغني محمود، والشّيخ السمالوطي، حضرت لكليهما درسًا في المسجد الحسيني، والشّيخ سعيد الموجي ذكر لي أن له سندًا عاليًا في رواية الموطأ، فطلبت أن أرويها عنه بذلك السّند وحضرت مجالسه بجامع الفاكهاني مع جمهور من الطّلبة،

وتولّيت قراءة بعض الموطأ عليه من حفظي، وحضرت عدّة دروس في دار الدّعوة والإرشاد الّتي أسّسها الشّيخ رشيد رضا في منيل الرّوضة، وزرت شاعر العربيّة الأكبر أحمد شوقي وأسمعته عدّة قصائد من شعره من حفظي فتهلّل -رحمه الله- واهتزّ، كما اجتمعت بشاعر النّيل حافظ إبراهيم في بعض أندية القاهرة وأسمعته من حفظي شيئًا من شعره كذلك.

المَرْحَلةُ الثّالِثةُ:

خرجت من القاهرة قاصدًا المدينة المنوّرة، فركبت البحر من بور سعيد إلى حيفا، ومنها ركبت القطار إلى المدينة، وكان وصولي إليها في أواخر سنة 1911، واجتمعت بوالدي -رحمه الله- وطفت بحلق العلم في الحرم النّبويّ مختبرًا، فلم يرق لي شيء منها، وإنّما غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتّحقيق شيء ولم أجد علمًا صحيحًا إلا عند رجلين هما شيخاي: الشّيخ العزيز الوزير التّونسي، والشّيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهنديّ، فهما -والحق يقال- عالمان محقّقان واسعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنّة. ولم أكن راغبًا إلا في الاستزادة من علم الحديث، رواية ودراية، ومن علم التّفسير، فلازمتهما ملازمة الظلّ، وأخذت عن الأوّل الموطأ دراية، ثم أدهشني تحقيقه في بقيّة العلوم الإسلاميّة، فلازمت درسه في فقه مالك، ودرسه في التّوضيح لابن هشام،ولازمت الثّاني في درسه لصحيح مسلم.

وأشهد أنّي لم أَرَ لهذين الشّيخين نظيراً من علماء الإسلام إلى الآن. وقد علا سنّي، واستحكمت التّجربة،

وتكاملت الملكة في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء اللّه أن ألقى. ولكنّني لم أَرَ مثل الشّيخين في فصاحة التّعبير ودقّة الملاحظة والغوص على المعاني واستنارة الفكر، والتّوضيح للغوامض، والتّقريب للمعاني القصيّة. ولقد كنت لكثرة مطالعتي لكتب التّراجم والطّبقات قد كوّنت صورة للعالم المبرز في العلوم الإسلاميّة منتزعة ممّا يصف به كتاب التّراجم بعض مترجميهم، وكنت أعتقد أنّ تلك الصّورة الذّهنيّة لم تتحقّق في الوجود الخارجيّ منذ أزمان، ولكنّني وجدتها محقّقة في هذين العالمين الجليلين.

وقد مات الشّيخ الوزير بالمدينة في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، أمّا الشّيخ حسين أحمد فقد سلّمه الشّريف حسين بن على إلى الإنجليز في أواخر ثورته المشؤومة، فنفوه إلى مالطة، ثمّ أرجعوه إلى وطنه الأصليّ (الهند) وعاش بها سنين وانتهت إليه رئاسة العلماء بمدينة العلم (ديوبند) ولما زرت باكستان للمرّة الأولى سنة 1952 ميلاديّة كاتبته فاستدعاني بإلحاح إلى زيارة الهند ولم يقدّر لي ذلك. وفي هذه العهود الأخيرة بلغتني وفاته بالهند.

وأخذت أيّام مجاورتي بالمدينة علم التّفسير عن الشّيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي، وكان ممّن يشار إليهم في هذا العلم مع تورّع وتصاون هو فيهما نسيج وحده.

وأخذتُ الجرح والتّعديل وأسماء الرّجال عن الشّيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري في داره أيّام انقطاعه عن التّدريس في الحرم النّبويّ. وكان من أعلام المحدّثين، ومن بقاياهم الصّالحة.

وأخذت أنساب العرب وأدبهم الجاهليّ، والسّيرة النّبويّة عن الشّيخ محمد عبد اللّه زيدان الشّنقيطي، وهو أعجوبة الزّمان في حفظ اللّغة العربيّة وأنساب العرب، وحوادث السّيرة.

وأتممت معلوماتي في علم المَنْطِق عن الشَّيخ عبد الباقي الأفغانيّ بمنزله، وكان رجلاً مسنًّا منقطعًا عن أسباب الدّنيا، قرأت عليه الحكمة المشرقيّة، وكان قيّمًا عليها، بصيرًا بدقائقها.

وذاكرت صاحبنا الشّيخ أحمد خيرات الشّنقيطيّ سنين عديدة في اللّغة والشّعر الجاهليّ، ومنه المعلّقات العشر، وصاحبنا محمد العمري الجزائريّ، أمّهات الأدب المشهورة خصوصًا الكامل للمبرد، والبيان والتّبيين للجاحظ، فقد ختمناهما مطالعة مشتركة فاحصة متأنّية، وكذلك فعلنا بكتاب الأغاني من أوله إلى آخره.

وبالجملة فقد كانت إقامتي بالمدينة المنوّرة أيّام خير وبركة عليّ، فكنت أنفق أوقاتي الزّائدة في إلقاء دروس في العلوم الّتي لا أحتاج فيها إلى مزيد كالنّحو والصّرف والعقائد والأدب، وكنت أتردّد على المكتبات الجامعة، فلا يراني الرّائي إلاّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتّى استوعبت معظم كتبها النّادرة قراءة. وفي مكتبة السّلطان محمود وفي مكتبة شيخنا الوزير، وفي مكتبة بشير آغا، أو في مكتبات الأفراد الغاصّة بالمخطوطات، مثل مكتبة آل الصّافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، وفي مكتبة آل المدني وآل هاشم، ومكتبة الشّيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التّونسي العربيّ

زرّوق، كما كنت أستعير كثيرًا من المخطوطات الغريبة من أصدقائي وتلامذتي الشّناقطة. أذكر منها ديوان غيلان ذي الرمة، فأقرأها وأحفظ عيونها. وقد حفظت في تلك الفترة معظم ديوان ذي الرمة.

كلّ هذا وأنا لم أنقطع عن إلقاء الدّروس، وجاءت الحرب العالميّة الأولى فلم أنقطع عن هذا النّظام المحكم في حياتي العلميّة، ولما جاءت سنة 1917 أمرت الحكومة العثمانيّة بترحيل سكّان المدينة كلّهم إلى دمشق بسبب استفحال ثورة الشّريف حسين بن علي، وعجز الحكومة عن تموين الجيش الّذي بلغ عدده خمسين ألفًا، وتموين المدنيّين الّذين يبلغ تعدادهم ثمانين ألفًا. فاقتضى تدبير قوّادها العسكريين إذ ذاك أن ينقل سكّان المدينة إلى مصدر الأقوات في دمشق، بدل أن تنقل الأقوات منها إليهم. فكنت من أوائل المطيعين لذلك الأمر.

وخرجت مع والدي إلى دمشق في شتاء سنة 1917، وكان من أوّل ما يعنيني لقاء رجال العلم وكانوا أوّل من بدأ بالفضل، فزاروني في منزلي وتعارفنا لأوّل لقاء،وهدتني المجالس الأولى إلى تمييز مراتبهم فاصطفيت منهم جماعة من أوّلهم الصّديق الحميم الشّيخ محمّد بهجت البيطار.

المَرْحَلَةُ الرّابِعَةُ:

ما لبثت شهرًا حتى انهالت عليَّ الرغبات في التّعليم بالمدارس الأهليّة،فاستجبت لبعضها، ثمّ حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأمويّ بمناسبة حلول شهر رمضان فامتثلت وألقيت دروسًا (تحت قبة

النّصر الشّهيرة) على طريقة الأمالي، فكنت أجعل عماد الدّرس حديثًا أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة. ثمّ أملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع النّاس شيئًا لم يألفوه ولم يسمعوه إلاّ في دروس الشّيخ بدر الدّين الحَسَنِي، ثمّ بعد خروج الأتراك من دمشق وقيام حكومة الاستقلال العربيّ دعتني الحكومة الجديدة إلى تدريس الآداب العربيّة بالمدرسة السّلطانيّة (وهي المدرسة الثّانويّة الوحيدة إذ ذاك) مشاركًا للأستاذ اللّغويّ الشّيخ عبد القادر المبارك.

فاضْطَلعتُ بما حُمّلت من ذلك، وتلقّى عنّي التّلامذة دروسًا في الأدب العربيّ الصّميم، وكانت الصّفوف الّتي أدرّس لها الأدب العربيّ هي الصّفوف النّهائيّة المرشّحة للبكالوريا، وقد تخرّج عنّي جماعة من الطّلبة هم اليوم عماد الأدب العربيّ في سوريا منهم: الدّكتور جميل صليبا، والدّكتور أديب الرّوماني، والدّكتور المحايري، والدكتور عدنان الأتاسي.

ولما دخل الأميرُ فيصل بن الحسين دمشق اتّصل بي وأرادني على أن أبُادرَ بالرّجوع إلى المدينة لأتولّى إدارة المعارف بها، ولم يكن ذلك في نيّتي وقصدي، لما طرأَ على المدينة من تغيّر في الأوضاع الماديّة والنّفسيّة فأَبَيْتُ عليه. وما فتئ يلحّ عليّ وآبى إلى أن سَنَحَتِ الفرصة فكَرَرْتُ راجعًا إلى الجزائر موطن آبائي وعشيرتي.

المَرْحَلةُ الخَامِسَةُ:

أعمالي في الجزائر، بعد رجوعي من الحجاز والشّام وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأعمالي فيها:

كان من تدابير الأقدار الإلهيّة للجزائر، ومن مخبآت الغيوب لها أن يرد عليّ بعد استقراري في المدينة المنوّرة سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشّيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشّمال الإفريقيّ، ولا أغالي، وباني النّهضات العلميّة والأدبيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة للجزائر.

وبيتُ ابن باديس في قسنطينة، بيتٌ عريقٌ في السّؤدد والعلم، ينتهي نسبُه في سلسلةٍ كعمود الصّبح إلى المعزّ بن باديس، مؤسّس الدولة الصّنهاجيّة الأولى الّتي خلفت الأغالبة على مملكة القيروان، ومدّت ظلّها على قسنطينة ومقاطعتها حينًا من الدّهر، ومع تقارب بلدينا بحيث لا تزيد المسافة بيننا على مائة وخمسين كيلومترًا، ومع أنّنا لِدَتان في السّن يكبرني الشّيخ بنحو سنة وبضعة أشهر. رغم ذلك كلّه، فإنّنا لم نجتمع قبل الهجرة إلى المدينة، ولم نتعارف إلا بالسّماع، لأنّني كنت عاكفًا في بيت والدي على التّعلّم، ثمّ على التّعليم، وهو كان يأخذ العلم عن علماء قسنطينة متّبعًا لتقاليد البيت، لا يكاد يخرج من قسنطينة، ثم بعد بلوغ الرّشد ارتحل إلى تونس، فأتمّ في جامع الزّيتونة تحصيل علومها.

كنّا نؤدّي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النّبويّ، ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشّيخ ابن باديس، منفردين إلى آخر اللّيل حين يفتح المسجد فندخل مع أوّل

داخل لصلاة الصّبح، ثمّ نفترق إلى اللّيلة الثّانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنوّرة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلّها تدبيرًا للوسائل الّتي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصّلة لتلك النّهضات الشّاملة الّتي كانت كلّها صورًا ذهنيّة تتراءى في مخيّلتينا، وصحبها من حسن النيّة وتوفيق اللّه ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أنّ تلك اللّيالي من سنة 1913 ميلاديّة هي الّتي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الّتي لم تبرز للوجود إلاّ في سنة 1931.

ورجع الشّيخ إلى الجزائر من سنته تلك بعد أن أقنعته بأنّي لاحق به بعد أن أقنع والدي أنّ رجوعي إلى الجزائر يترتّب عليه إحياء للدّين والعربيّة، وقمع للابتداع والضّلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسيّ، وكان هذا هو المنفذ الوحيد الّذي أدخُل منه على نفس والدي ليسمح لي بالرّجوع إلى الجزائر.

وشرع الشّيخ بعد رجوعه من أوّل يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الّذي اتّفقنا عليه، ففتح صفوفًا لتعليم العلم، واحتكر مسجدًا جامعًا من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التّفسير، وكان إمامًا فيه، دقيق الفهم لأسرار كتاب اللّه، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع النّاس به حتّى انهال عليه طلاّب العلم من الجبال والسّهول إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير ومحبّي العلم،

فقويت بهم عزيمته، وسار لا يلوي على صائح، واشتعلت الحرب العالميّة الأولى وهو في مبدإ الطّريق، فاعتصم باللّه فكفاه شرّ الاستعمار، وكان له من وجود والده درع وقاية من بطش فرنسا الّتي لا تصبر على أقلّ من هذه الحركات، وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر، فسكتت عن الابن احترامًا لشخصيّة الوالد، وظهرت النّتائج المرجوّة لحركته في السّنة الأولى، وكانت في السّنة الثانية وما بعدها أكبر، وعدد الطّلبة أوفر، إلى أن انتهت الحرب.

ورجعت أنا إلى الجزائر فلقيني بتونس، وابتهج لمقدمي أكثر من كلّ أحد لتحقيق أمله المعلّق علي، وزرته بقسنطينة قبل أن أنقلب إلى أهلي، ورأيت بعيني النّتائج الّتي حصل عليها أبناء الشّعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أنّ هذه الحركة العلميّة المباركة لها ما بعدها، وأنّ هذه الخطوة المسدّدة الّتي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربيّة في الجزائر، وأنّ هذه المجموعة من التّلاميذ الّتي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر.

ولمست بيدي آثار الإخلاص في أعمال الرّجال، ورأيت شبانًا ممن تخرّجوا على يد هذا الرّجل وقد أصبحوا ينظمون الشّعر العربيّ بلغة فصيحة وتركيب عربيّ حرّ، ومعان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمّة، وأوصاف رائعة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيت جماعة أخرى من أولئك التّلامذة وقد أصبحوا

يحبرون المقالات البديعة في الصّحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشّرق العربيّ، وآخرون يعتلّون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدّينيّة والاجتماعيّة، فيرتجلون القول المؤثّر، والوصف الجامع، ويصفون الدّواء الشّافي بالقول البليغ.

وحللت بلدي وبدأت من أوّل يوم في العمل الّذي يؤازر عمل أخي ابن باديس... بدأت أولاً بعقد النّدوات العلميّة للطّلبة، والدّروس الدّينيّة للجماعات القليلة، فلمّا تهيّأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدّروس المنظّمة للتّلامذة الملازمين، ثمّ تدرّجت لإلقاء المحاضرات التّاريخيّة والعلميّة على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الدّيني كلّ جمعة في بلد، ثمّ لما تمّ استعداد الجمهور الّذي هزّته صيحاتي إلى العلم، أسّست مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشّبّان نشأة خاصّة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضّروري من العلم.

وكانت أعمالي هذه في التّعليم الّذي وقفت عنايتي عليه فاترة أحيانًا لخوفي من مكائد الحكومة الاستعماريّة، إذ ليس لي سند آوى إليه كما لأخي ابن باديس، وكانت حركاتي منذ حللت بأرض الوطن مثار ريب عند الحكومة ومنبع شكوك، حتّى صلاتي وخطبي الجمعيّة، فكنت أتغطى لها بألوان من المخادعة حتّى أنّي تظاهرت لها عدّة سنين بتعاطي التّجارة وغشيان الأسواق لإطعام من أعولهم من أفراد أسرتي، ولكنّها لم تنخدع ولم تطمئن إلى حركتي، فكان

بوليسها يلاحقني بالتّقارير ويضيّق الخناق على كلّ من يزورني من تونس أو الحجاز، كلّ هذا وأنا لم أنقطع عن الدّروس لطلاّب العلم باللّيل.

في هذه الفترة ما بين سنتَي 1920 و1930 كانت الصّلة بيني وبين ابن باديس قويّة وكنّا نتلاقى في كلّ أسبوعين أو كلّ شهر على الأكثر، يزورني في بلدي (سطيف) أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط ونزن آثارها في الشّعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق براجمنا للمستقبل بميزان لا يختلّ أبدًا، وكنّا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها، فكانت هذه السّنوات العشر كلّها إرهاصات لتأسيس جمعيّة العلماء الجزائريين.

كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات كانت كلّها إعدادًا وتهيئة للحدث الأعظم وهو إخراج جمعيّة العلماء من حيّز القول إلى حيّز الفعل، وأصبح لنا جيش من التّلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلّح بالخطباء والكتّاب والشّعراء، يلتفّ به مئات الآلاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة يجمعهم كلّهم إيمان واحد، وفكرة واحدة، وحماس متأجّج، وغضب حادّ على الاستعمار.

كانت الطّريقة الّتي اتّفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربيّة النّشء هي: ألاّ نتوسّع له في العلم، وإنّما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمّت لنا هذه التّجربة في الجيش الّذي أعددناه من تلامذتنا.

كانت سنة 1930 هي السّنة الّتي تمّ بتمامها قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر، فاحتفلت بتلك المناسبة احتفالا قدّرت له ستة أشهر ببرنامج حافل مملوء بالمهرجانات ودعت إليه الدّنيا كلّها، فاستطعنا بدعايتنا السّرّية أن نفسد عليها كثيرًا من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلاّ شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنيّة أن نجمع الشّعب الجزائريّ حولنا ونلفت أنظاره إلينا.

تكامل العدد وتلاحق المدد... العدد الّذي نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعيّة، والمدد من إخوان لنا كانوا بالشّرق العربيّ مهاجرين أو طلاّب علم، فأعلنا تأسيس الجمعيّة في شهر مايو سنة 1931 بعد أن أحضرنا لها قانونًا أساسيًا مختصرًا من وضعي أدرته على قواعد من العلم والدّين لا تثير شكًا ولا تخيف، وكانت الحكومة الفرنسيّة في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أنّنا لا نضطلع بالأعمال العظيمة فخيّبنا ظنّها والحمد لله.

دعونا فقهاء الوطن كلّهم، وكانت الدّعوة الّتي وجّهناها إليهم صادرة باسم الأمّة كلّها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأنّ أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصّادقة على جمودهم، ووصفنا إيّاهم بأنّهم بلاء على الأمّة وعلى الدّين لسكوتهم على المنكرات الدّينيّة، وبأنّهم مطايا للاستعمار، يذلّ الأمّة ويستبعدها باسمهم، فاستجابوا جميعًا للدّعوة، واجتمعوا، في يومها المقرّر.

ودام اجتماعنا في نادي الترقّي بالجزائر أربعة أيام كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر، ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحقّ أيقن أولئك الفقهاء أنّهم ما زالوا في دور التّلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحقّ، فأسلموا القيادة لنا، فانتخب المجلس الإداريّ من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة ووحدة المنازع الاجتماعيّة والسّياسيّة، ووحدة المناهضة للاستعمار، وقد وكّل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع، وانتخبوا ابن باديس رئيسًا، وكاتب هذه الأسطر وكيلا نائبًا عنه، وأصبحت الجمعيّة حقيقة واقعة قانونيّة... وجاء دور العمل.

هذه المرحلة من حياتي هي مَنَاطُ فخْري وتاج أعمالي العلميّة والاجتماعيّة، والأفق المشرق من حياتي. وهذه هي المرحلة الّتي عملت فيها لديني ولغتي ووطني أعمالا أرجو أن تكون بمقربة من رضى الله، وهذه هي المواقف الّتي أشعر فيها كلّما وقفت أردّ ضلالات المبتدعة في الدّين، أو أكاذيب الاستعمار، أشعر كأنّ كلامي امتزج بزجل الملائكة بتسبيح الله.

كلّفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أول جلسة أن أضع للجمعيّة لائحة داخليّة نشرح أعمالها كما هي في أذهاننا لا كما تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلّلون منّا، فانتبذت ناحية ووصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءت في المائة وسبع وأربعين مادّة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات من أربع أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصّحافيين العرب

المثقّفين بالفرنسيّة، فأعلنوا في نهاية عرض اللاّئحة إيمانهم بأنّ العربيّة أوسع اللّغات، وأنّها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحاميين، وكأنّما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم، وخطب الرّئيس عند تمام مناقشة اللاّئحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثّرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان ممّا قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار، ثمّ خاطبني بقوله: وَرِيَ بك زناد هذه الجمعيّة.

كان من نتائج الدّراسات المتَكرّرة للمجتمع الجزائريّ بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة المنوّرة، أنّ البلاء المنصبّ على هذا الشّعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصّان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادّي وهو الاستعمار الفرنسيّ يعتمد على الحديد والنّار، واستعمار روحاني يمثّله مشائخ الطّرق المؤثّرون في الشّعب والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدّين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعيّة، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشّعب حتّى أصبح يتألّم ولا يبوح بالشّكوى أو الانتقاد خوفًا من الله بزعمه، والاستعماران متعاضدان يؤيّد أحدهما الآخر بكلّ قوّته، ومظهرهما معًا تجهيل الأمّة لئلاّ تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلاّ تستعين بالمال على الثّورة.

فكان من سداد الرأي وإحكام التّدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعيّة بمحاربة هذا الاستعمار الثّاني لأنّه

أهون، وكذلك فعلنا، ووجد المجلس الإداري نظامًا محكمًا فاتّبعه، لذلك كانت أعمال الجمعيّة متشعّبة وكان الطّريق أمام المجلس الإداري شاقًّا ولكنّه يرجع إلى الأصول الآتية:

1- تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضّلال في الدّين، بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأنديّة والأماكن العامّة والخاصّة، حتّى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصّة الّتي أنشأناها لخدمة الفكرة الإصلاحيّة.

2- الشّروع العاجل في التّعليم العربيّ للصّغار في ما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الآباء، ربحًا للوقت قبل بناء المدارس.

3- تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرّجين، ودعوة الشّبّان المتخرّجين من جامع الزّيتونة للعمل في تعليم أبناء الشّعب.

4- العمل على تعميم التّعليم العربيّ للشّبّان على النّمط الّذي بدأ به ابن باديس.

5- مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمّة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

6- مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام الّتي احتجزتها ووزّعتها على معمّريها، لتصرف في مصارفها الّتي وقفت عليها (وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة).

7- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلاميّ في الأحوال الشّخصيّة مبدئيًّا.

8- مطالبة الحكومة بعدم تدخّلها في تعيين الموظّفين الدّينيين.

هذه معظم الأمّهات التي تدخل في تصميم أعمال الجمعيّة، منها ما بدأناه بالفعل ولاقينا فيه الأذى، فصبرنا حتّى كانت العاقبة لنا، ومنها ما طالبنا به حتّى أقمنا حقّ الأمّة فيه، وفضحنا الاستعمار شرّ فضيحة، ومجموع هذه المطالب في ظاهرها دينيّة، ولكنّها في معناها وفي نظر الاستعمار هي نصف الاستقلال.

كانت السّنة الأولى من عمر الجمعيّة سنة غليان: من جهتنا في تكوين الشُّعَب في كلّ مدينة وكلّ قرية لتنفيذ مقاصد الجمعيّة، وغليان السّخط علينا من الاستعمار لأنّنا فاجأناه بما تركه مشدوهًا حائرًا لا يدري ما يفعل ولا من أين يبدأ في مقاومة حركتنا، وتفرّق أعضاء الجمعيّة على القطر كلّه يرشدون ويعظون ويزرعون الوعي، ويراقبون حركة التّعليم ويحضرون أماكنه.

وعقدنا الاجتماع العامّ في السّنة الثّانية، فكانت النّتيجة باهرة، والعزائم أقوى والأمّة إلينا أميل، وخرج المتردّدون عن تردّدهم فانضمّوا إلينا، وأعيد انتخاب المجلس فأسفر عن بقاء القديم وزيادة أعضاء ظهرت مواهبهم في العلم، وكشّر الاستعمار عن أنيابه، فبدأ يمنعنا من إلقاء الدّروس في المساجد الواقعة في قبضته، وثارت نخوة الأمّة فأنشأت بمالِها بضعة وتسعين مسجدًا حرًّا في سنة واحدة في أمهات القرى.

في هذه السّنة قرّرت الجمعيّة تعيين العلماء الكبار في عواصم المقاطعات الثّلاث ليكون كلّ واحد منهم مشرفًا على الحركة الإصلاحيّة والعلميّة في المقاطعة كلّها، فأبقينا الشّيخ ابن باديس في مدينة قسنطينة وحمّلناه مؤونة الإشراف على الحركة في جميع المقاطعة، وخصصنا الشّيخ الطّيب العقبي بالجزائر ومقاطعتها، وخصصوني بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، وكانت هي إحدى العواصم العلميّة التّاريخيّة الّتي أخنى عليها الدّهر فانتقلت إليها بأهلي، وأحييت بها رسوم العلم، ونظّمت دروسًا للتّلامذة الوافدين على حسب درجاتهم، وما لبث إلاّ قليلاً حتى أنشأت فيها مدرسة دار الحديث، وتبارى كرام التّلمسانيين في البذل لها حتّى برزت للوجود تحفة فنّية من الطّراز الأندلسيّ، وتحتوي على مسجد وقاعة محاضرات، وأقسام لطلبة العلم، واخترت لها نخبة من المعلّمين الأكفاء للصّغار. وتولّيت بنفسي تعليم الطّلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصّبح، وأختمها بدرس في التّفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النّوادي فألقي محاضرة في التّاريخ الإسلاميّ، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهليّ إلى مبدإ الخلافة العباسيّة بضع مئات من المحاضرات.

وفي فترة العطلة الصّيفيّة أختم الدّروس كلّها وأخرج من يومي للجولان في الإقليم الوهرانيّ مدينة مدينة وقرية قرية، فألقي في كل مدينة درسًا أو درسين في الوعظ

والإرشاد، وأتفقد شُعَبَها ومدارسها، وكانت أيام جولتي كلّها أيام أعراس عند الشّعب، يتلقونني على عدّة أميال من المدينة أو القرية، وينتقل بعضهم معي إلى عدّة مدن وقرى، فكان ذلك في نظر الاستعمار تحدّيًا له ولسلطته، وفي نظر الشّعب تمجيدًا للعلم والدّين وإغاظة للاستعمار، فإذا انقضت العطلة اجتمعنا في الجزائر العاصمة وعقدنا الاجتماع العامّ وفي أثره الاجتماع الإداريّ وقدّم كلّ منّا حسابه، ونظّمنا شؤون السّنة الجديدة، ثمّ انصرفنا إلى مراكزنا.

بلغت إدارة الجمعيّة وهي في مستهل حياتها من النّظام والقوّة مبلغًا قويًا بديعًا فأصبحنا لا نتعب إلاّ في التّنقل والحديث، أمّا الحكومة الاستعماريّة فإنّنا بنينا أمرنا من أوّل خطوة على الاستخفاف بها وبقوانينها، وقد كنّا نعلن في جرائدنا كلّ أسبوع بأنّ القوانين الظّالمة لا تستحقّ الاحترام من الرّجال الأحرار، ونحن أحرار فلتفعل فرنسا ما شاءت، وكان هذا الكلام ومثله أنكى عليها من وقع السّهام لأنّها لم تألف سماعه، وقد اطمأنّت إلى أنّ الشّعب الجزائري قد مات كما صرّح بذلك أحد ساستها الكبار في خطبة ألقاها على ممثّلي الأمم في المهرجان الّذي أقامته في عيدها المئوي لاحتلال الجزائر، وكان ممّا قال: "لا تظنّوا أنّ هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرّومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أنّ مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الدّيار".

وكانت أعمال الإخوان في المقاطعتين الأخريين مشابهة لأعمالي بمقاطعة وهران لأننا نجري على منهاج واحد، ونسير على برنامج واحد عاهدنا اللّه على تنفيذه، ولما ضاقت فرنسا ذرعًا بأعمالي ونفد صبرها على التّحديات الصّارخة لها، وأيقنت أنّ عاقبة سكوتها عنّا هو زوال نفوذها بأعمالي وخاتمة استعمارها، اغتنمت فرصة نشوب الحرب العالميّة الثانية، وأصدر رئيس وزرائها إذ ذاك (دالاديى) (Daladier) قرارًا يقضي بإبعادي إلى الصّحراء الوهرانيّة إبعادًا عسكريًا لا هوادة فيه، لأنّ في بقائي طليقًا حرًا خطرًا على الدّولة، كما هي عبارته في حيثيات القرار، ووكّل تنفيذ قراره للسّلطة العسكريّة فنقلوني للمنفى في عاشر أفريل سنة 1940، وبعد استقراري في المنفى بأسبوع تلقّيت الخبر بموت الشّيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله- بداره في قسنطينة بسرطان في الأمعاء، كان يحسّ به من سنوات ويمنعه انهماكه في التّعليم وخدمة الشّعب من التّفكير فيه وعلاجه، وقد شيّع جنازته عشرات الألوف من الأمّة رغمًا عن قسوة الأحكام العسكريّة وقت الحرب.

واجتمع المجلس الإداريّ للجمعيّة ورؤساء الشُّعَب يوم موته وانتخبوني رئيسًا لجمعيّة العلماء بالإجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى فأصبحت أدير الجمعيّة وأصرف أعمالها من المنفى بالرّسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقات، وكنت حين بدأت نذر الحرب تظهر وغيومها تتلبّد أجتمع بالشّيخ ابن باديس في داري بتلمسان فقررنا ماذا نصنع إذا قامت الحرب، وقررنا من

يخلفنا إذا قبض علينا؟ وقلبنا وجوه الرّأي في الاحتمالات كلّها، وقدّرنا لكلّ حالة حكمها، وكتبنا بكلّ ما اتّفقنا عليه نسختين، ولكن كانت الأقدار من وراء تدبيرنا فقبضه الله إليه.

بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريبًا، ولما أطلق سراحي من المنفى أوّل سنة ثلاث وأربعين كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأت في سنة واحدة ثلاثًا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كلّه، كلّها بأموال الأمّة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسًا عربيًا مسلمًا فجاءت كلّها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنّها نتاج فكرة واحدة.

وتهافتت الأمّة على بذل الأموال لتشييد المدارس حتّى أربت على الأربعمائة مدرسة، ولم أتخلّ بعد رئاستي للجمعيّة وخروجي من المنفى عن دروسي العلميّة للطّلبة وللعامّة، ولما رأت فرنسا أنّ عقابها لي بالتّغريب ثلاث سنوات لم يكف لكسر شوكتي، وأنّني عدت من المنفى أمضى لسانًا وقلبًا وعزيمة ممّا كنت، وأنّ الحركة الّتي أقودها لم تزدد إلاّ اتساعًا ورسوخًا، انتهزت فرصة نهاية الحرب ودبّرت للجزائر ثورة مفتعلة فقتلت من الشّعب الجزائري المسلم ستين ألفًا، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفًا معظمهم من أتباع جمعيّة العلماء، وألقت بي في السّجن سنة إلاّ قليلا، ثمّ أخرجوني بدعوى صدور عفو عام عن مدبّري الثّورة ومجرميها وكان من (زملائي) في السّجن الدّكتور شريف

سعدان -رحمه الله- والصّيدلي فرحات عبّاس والمحامي شريف حاج سعيد وغيرهم.

ولما خرجت من السّجن عدت إلى أعمالي أقوى عزيمة ممّا كنت، وأصلب عودًا وأقوى عنادًا، وعادت المدارس الّتي عطّلتها الحكومة زمن الحرب، وأحييت جميع الاجتماعات الّتي كانت معطلة بسبب الحرب، ومنها الاجتماع السّنوي العامّ، وأحييت جريدة "البصائر" التي عطّلناها من أوّل الحرب باختيارنا باتّفاق بيني وبين ابن باديس لحكمة، وهي أنّنا لا نستطيع تحت القوانين الحربيّة أن نكتب ما نريد، ولا يرضى لنا ديننا، وهمّتنا، وشرف العلم، وسمعة الجمعيّة في العالم، أن نكتب حرفًا ممّا يراد منا، فحكمنا عليها بالتّعطيل وقلنا: بيدي لا بيد عمرو، وحسنا فعلنا، كذلك عطّلنا مجلة "الشّهاب" النّاشرة لأفكار الجمعيّة، ولما قرّرنا إحياء جريدة "البصائر" ألزمني إخواني أن أتولّى إدارتها ورئاسة تحريرها فقبلت مكرهًا، وتضاعفت المسؤوليات، وثقلت الأعباء، فرئاسة الجمعيّة وما تستلزم من رحلات وما يتبع الرّحلات من دروس ومحاضرات، كلّ ذلك كان يستنزف جهدي، فكيف إذا زادت عليها أعباء الجريدة وتحريرها؟ ولكنّ عون الله إذا صاحب امْرأً خفّت عليه الأثقل، كنت أقوم للجمعيّة بكلّ واجباتها، وأقوم للجريدة بكلّ شيء حتّى تصحيح النّماذج، وأكتب الافتتاحيات بقلمي، وقد تمرّ اللّيالي ذوات العدد من غير أن أطعم النّوم، وقد أقطع الألف ميل بالسّيارة في اللّيلة الواحدة، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلاّ وأحضر بنفسي وأبرم الصّلح بينهما، وأرغم

الاستعمار الّذي من همّه بثّ الفتن، وإغراء العداوة والبغضاء بين النّاس، فكنت معطّلًا لتدبيراته في جميع الميادين.

ضرورة الانتقال إلى التعليم الثانوي:

بلغ عدد المدارس الابتدائيّة العربيّة أربعمائة وزيادة، وبلغ عدد تلامذتها إلى اليوم الّذي سافرت فيه إلى الشّرق مئات الآلاف بين بنين وبنات، وبلغ عدد معلّميها ألفًا وبضع مئات، وبلغت ميزانيتها الخاصّة (وهي فرع من الميزانيّة العامة لجمعيّة العلماء) مائة مليون فرنك وزيادة إلى نهاية خروجي من الجزائر سنة 1952.

ولما بلغ عدد المتخرّجين من مدارسنا بالشّهادة الابتدائيّة عشرات الآلاف، وجدت نفسي أمام معضلة يتعسّر حلّها، ذلك أنّ حاملي هذه الشّهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد، وأرهقوني من أمري عسرًا، وألحّوا عليّ أن أتقدّم بهم خطوة إلى الأمام، وحرام علي -على حدّ تعبيرهم- أن أقف بهم دون غاياته، فكان واجبًا علي أن أخطو بهم إلى التّعليم الثّانوي، وأهبت بالأمّة أن تعينني بقوّة أبلغ بها غرض أبنائها، فاستجابت فكان ذلك مشجّعًا على إنشاء معهد ثانويّ بمدينة قسنطينة نسبناه إلى إمام النّهضة ابن باديس، تخليدًا لذكره، واعترافًا بفضله على الشّعب، فاشترينا دارًا عظيمة واسعة من دور عظماء البلدة، وجعلنا منها معهدًا ثانويًا، وهيأنا له من سنته الأساتذة والتّلامذة والكتب والمال.

فكان التّعليم فيه بالمعنى الكامل عند غيرنا من الأمّم ببرامجه وكتبه وأدواته، وكان هذا المعهد تاجًا لمدارس جمعيّة

العلماء وغرة في أعمالها، وكانت نيتي معقودة على إنشاء معهدين ثانويين آخرين؛ أحدهما بمدينة الجزائر، والثّاني بمدينة تلمسان، وقد بلغ تلامذة المعهد الباديسي في السّنة الأولى ألفًا أو يزيدون، وكلّهم منتخبون من مدارسنا الابتدائيّة من جميع القطر، ثمّ اشترينا من مال الأمة دارًا أخرى تتّسع لسكنى سبعمائة طالب، وبعد خروجي لهذه الرّحلة افتتحها إخواني من بعدي بعد أن قسموها إلى قاعات نوم فسيحة بأسرتها، ودواليب الثّياب، وكتب المطالعة، على ترتيب بديع، وفي الدّار ما يريح الطّالب من مغتسلات، وحمّامات، ومطابخ، وغرف طعام.

مَاليَةُ جمعيّة العلماء:

مالية جمعيّة العلماء تأتيها من موردين: اشتراكات الشّعب الشّهريّة والتّبرّعات غير المحدودة، وميزانيتها في السّنوات الأخيرة أصبحت ضخمة وقد قسمتها إلى أقسام، فمالية بناء المدارس لا تدخل خزينة الجمعيّة، بل تقبضها الجمعيّة المحليّة وتنفقها على البناء، فإذا تمّ البناء جرى الحساب علنًا على رؤوس الأشهاد بحضرتي وسُدّ بابها. والمالية الخاصّة بأجور المعلّمين والقَوَمة على المدرسة تؤخذ من آباء التّلاميذ بواسطة أمين مال الجمعيّة المحليّة في مقابل إيصالات رسميّة مختومة بختمها، ولكلّ مدرسة جمعيّة محليّة قانونيّة تنتخبها جمعيّة العلماء من أعيان المدينة أو القرية، ولا تحاسب جمعيّة العلماء إلاّ في آخر السّنة في الاجتماع العامّ، والمال الذي يتحصّل من الاشتراك العام في جمعيّة العلماء هو الذي يدخل إلى خزانتها، ويحاسب

عليه أمين مالها في التّقرير المالي الذي يتقدّم به إلى الاجتماع العام، ويضاف إليه ما يتحصّل من التّبرّعات غير المحدودة.

أما الجريدة فإنّها قائمة بنفسها من أثمان الاشتراك فيها، وقد قررت في كلّ اجتماع عام أن تعرض على المجلس الإداري جميع المداخيل المذكورة من أجور التّعليم والاشتراكات العامّة والتّبرعات، كلّ ميزانية على حدة، وكلّ مدرسة يفيض دخلها على خرجها يدخل المبلغ الفائض في الخزينة العامّة، وكلّ مدرسة ينقص دخلها عن خرجها يعتمد لها من الخزينة العامّة ما يسدّد عجز ميزانيتها، وكل هذا على نظام بديع يؤدي إلى اشتراكيّة بين المدارس مع بعضها، وبين الشّعب والجمعيّة المحلّية.

أثرُ أَعْمَالِي وأعمَالُ إخْواني في الشّعب:

أثر أعمالنا في الشّعب بارز لا ينكره حتّى أعداؤنا من الاستعماريين، وخصومنا من إخواننا السّياسيين، فمن آثارنا بثّ الوعي واليقظة في الشّعب حتّى أصبح يعرف ما له وما عليه، ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأمجاد العرب الّتي كان الاستعمار يسدّ عليه منافذ شعاعها، حتّى لا يتسرّب إليه شيء من ذلك الشّعاع، ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضار الضّلال والابتداع، وإبراز فضائل الإسلام، وأوّلها الاعتماد على النّفس، وإيثار العزة والكرامة، والنّفور من الذّلة والاستكانة والاستسلام، ومنها أخذ كلّ شيء بالقوّة، ومنها العلم.

هذه الكلمة الصّغيرة الّتي تنطوي تحتها جميع الفضائل، ومنها بذل المال والنّفس في سبيل الدّين والوطن، ومنها نشر التّحاب والتآخي بين أفراد المجتمع، ومنها التّمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام؛ فكلّ هذه الفضائل كان الاستعمار يغطيها عن قصد لينساها المسلمون على مرّ الزّمان بواسطة التّجهيل وانزواء العقل والفكر.

وقد وصل الشّعب الجزائري إلى ما وصل إليه. بفضل جمعيّة العلماء، وما بذلناه من جهود في محو الرّذائل الّتي مكّن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، ولو تأخّر وجود الجمعيّة عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الّتي سلكناه في إيقاظ الأمّة وتوجيهها في السّبيل السّوي لما قامت هذه الثّورة الجارفة في الجزائر، التي بيّضت وجه العرب والمسلمين، ولو نشاء لقلنا إنّنا أحيينا اللّسان العربيّ، والنّخوة العربيّة. وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النّفوس وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأوّل في الاتّعاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كلّه الشّعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثّورة يحطّم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السّعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر.

مُؤَلَّفَاتِي:

لم يتّسع وقتي للتّأليف والكتابة مع هذه الجهود الّتي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنّني أتسلّى بأنّني ألّفت للشّعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيدًا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته فأصبح مسلمًا عربيًا، وصحّحت له موازين إدراكه فأصبح إنسانًا أبيًا، وحسبي هذا مقربًا من رضى الرّب ورضى الشّعب.

ومع ذلك فقد ساهمت بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يساعدني الفراغ ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلّها مسوّدات في مكتبتي بالجزائر.

فمن أجلّ ما كتبت:

عيون البصائر: وهي من المقالات التي كتبتها بقلمي في جريدة «البصائر» في سلسلتها الثانية.

كتاب **بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر**، (والتزمت فيها باللّهجة السائدة اليوم في مواطن هلال بن عامر).

كتاب **النقايات والنفايات في لغة العرب**: جمعت فيه كل ما جاء على وزن فعالة (من مختار الشيء أو مرذوله).

كتاب **أسرار الضّمائر في العربيّة**.

كتاب **التّسمية بالمصدر**.

كتاب **الصّفات التي جاءت على وزن فعَل** (بفتح العين).

كتاب **نظام العربيّة في موازين كلماتها**.

كتاب **الاطّراد والشّذوذ في العربيّة** (رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك).

كتاب **ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة** رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.

رواية **كاهنة أوراس** بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال.

رسالة **في مخارج الحروف وصفاتها بين العربيّة الفصيحة والعامية**.

كتاب **حكمة مشروعيّة الزكاة في الإسلام** بدأت فيه من أيام إقامتي في دمشق بعد الحرب الأولى، وأتممته بعد ذلك في فترات، وبحثت فيه ينابيع المال في الإسلام، واستخرجت ينابيع أخرى غير منصوصة يلتجئ إليها جماعات المسلمين إذا حَزَبَهم أمر، أو فلجأتهم حادثة.

كتاب **شُعَب الإيمان** جمعت فيه الأخلاق والفضائل الإسلاميّة.

وهناك محاضرات وأبحاث كتبها عنّي التّلامذة في حين إلقائها، وهناك فتاوى متناثرة، ولكن أعظم ما دوّنت، ملحمة رجزيّة نظمتها في السّنين الّتي كنت فيها مبعدًا في الصّحراء الوهرانيّة، وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت من الرّجز السّلس اللّزومي في كل بيت منه، وقد تضمّنت فنونًا من المواضيع: تاريخ الإسلام ووصف لكثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا، وللمجتمع الجزائري بجميع فرقه ونحله، ولأفانين في الهزل للمذاهب الاجتماعيّة والفكريّة والسياسيّة المستجدّة، والإنحاء على الابتداع في الدّين، وتصوير لأولياء الشّيطان، ومحاورات

أدبيّة رائعة بينهم وبين الشّيطان، ووصف للاستعمار ومكائده ودسائسه وحيله وتحذيراته للشّعوب للقضاء على مقوماتها.

ولم أقرأ للرجّاز رجزًا سلسًا يلتحق بالشّعر الفنّي مثل هذه الملحمة إلاّ لابن الخطيب في نظم الدّول، ولشوقي في رجز دول العرب وعظماء الإسلام، ولبعض الشناقطة.

وكان الرّجز موقوفًا على نظم المتون العلميّة، وهي مقيّدة بالاصطلاح العلميّ، لذلك كان باردًا بعيدًا عن الفنّ خاليًا من الإشراق والرّوعة حتّى عدّه المعرّي من سفساف القريض وتخيّل للرجّاز جنّة حقيرة، وأنا أعتبره بحرًا كبقيّة بحور الشّعر العربيّ يرتفع فيه أقوام وينخفض آخرون، ولمهيار الديلمي قصائد كثيرة من مسلسلاته من وزن هذا البحر، ولم يقعد بها عن الإجادة أنّها من الرّجز، وشوقي إمام الشّعر في وقتنا هذا يقول في شأن الغاضّين من الرّجز الظانّين بأنّه مركب لمن عجز.

يرون رأيًا وأرى خلافه... الكأس لا تُقوِّم السّلافه

خُلاَصَةُ الخُلاَصَة:

1- ولدت عند طلوع الشّمس من يوم الخميس الثّالث عشر من شهر شوّال عام 1306هـ الموفق للرّابع عشر من شهر يونيو سنة 1889م.

2- حفظت القرآن ومتون العلم الكبيرة وأنا ابن تسع سنين، وتلقّيت علوم الدّين والعربيّة في بيت أسرتي على عمّي القائم بتربيتي الشّيخ محمد المكّي الإبراهيميّ وكان علامة زمانه في العلوم العربيّة.

3- مات عمّي وأنا ابن أربع عشرة سنة، بعد أن أجازني في العلوم الّتي تلقّيتها عليه.
4- وهبني الله حافظة خارقة، وذاكرة عجيبة تشهدان بصدق ما يحكى عن السّلف وكانتا معينتين لي في تحصيل العلم في هذا السن.
5- بعد موت عمّي خلفته في إلقاء الدّروس على تلامذته وغيرهم إلى أن جاوزت العشرين سنة.
6- بيتنا عريق في العلم خرج منه جماعة أفذاذ في علوم الدّين والعربيّة في الخمسة قرون الأخيرة، بعد انحطاط عواصم العلم الشّهيرة في المغرب.
7- رحلت إلى المدينة أنا ووالدي مهاجرين فرارًا من الاستعمار الفرنسيّ، فكنت من مدرّسي الحرم النّبويّ الشّريف، وتلقّيت فيها علم التّفسير، وعلم الحديث رواية ودراية، وعلم الرّجال وأنساب العرب. ومكثت في المدينة المنوّرة قريبًا من ستّ سنين، ثمّ انتقلنا إلى دمشق في أثناء الحرب العالميّة الأولى فكنت من أساتذة العربيّة في المدرسة السّلطانيّة بها مدّة سنتين، في عهد حكومة الاستقلال العربيّ.
8- بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى رجعت إلى بلدي بالجزائر، وبقيت بها أنشر العلم في فترات متقطّعة إلى سنة 1931 ميلاديّة، وكنت أحد اثنين يرجع لهما الفضل في تكوين جمعيّة العلماء أنا وعبد الحميد بن باديس، وكنت في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدّينيّة والعربيّة بالجزائر من الابتدائيّة إلى العاليّة، وكنت أبرز المشيّدين

لأربعمائة مدرسة في مدن القطر الجزائري وقراه، وفي طليعة المجاهدين في سبيل الإصلاح الدّينيّ وحرب التّدجيل والابتداع في الدّين وبثّ الوعي الوطنيّ، وتصحيح الموازين الفكريّة والعقليّة في نفوس أفراد الشّعب الجزائريّ.

9- بعد ظهور جمعيّة العلماء للوجود انغمست في أعمالها وتشكيلاتها وانقطعت إلى العلم وتأسيس مدارسه ووضع برامجه، وكيلا لها في حياة ابن باديس ورئيسًا لها بعد موته على ما هو مفصّل في الخلاصة، وفي سنة 1952 ميلاديّة رحلت إلى الشّرق بتكليف من جمعيّتي، وكان الباعث على هذه الرّحلة أمرين:

الأول: السّعي لدى الحكومات العربيّة لتقبل لنا بعثات من أبناء الجزائر.

الثّاني: مخاطبة حكومات العرب والمسلمين في إعانتنا ماليًا حتّى تستطيع الجمعيّة أن تواصل أعمالها بقوّة، لأنّ الميدان اتّسع أمامها، والشّعب الجزائريّ محدود القوّة الماليّة، إذا لم يعنّا إخواننا فربّما تنتكس حركتنا، وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا. وقد قدمت مصر ثمّ زرت باكستان والعراق وسوريا والحجاز، فأمّا قبول البعثات فقد حصلت فيه على الغرض، وأمّا الإعانة بالمال فقد كانت طفيفة، وقامت الثّورة الجزائريّة المباركة سنة 1954، واستفحل أمرها فانقطعت مكرهًا عن زيارة الجزائر.

10- تركت مسوّدات مؤلّفاتي كلّها بالجزائر ولم أصحبها معي لتطبع أو يطبع بعضها هنا كما كنت آمل، لأنّي لم أشأ أن أخلط عملاً عموميًا للجزائر بعمل شخصيّ لنفسي، وأنا أرجو للثّورة الجزائريّة الّتي شاركت في التّمهيد لها وتهيئة أسبابها ختامًا جميلاً تنال به الجزائر حرّيّتها واستقلالها، نفعنا الله بما علّمنا وبما علّمْناه إنّه مجازي العاملين المخلصين."[1]

***

(1) المصدر السابق، ج5، ص272.

السيرة 03

الشَّيْخُ مُحمّدُ البَشير الإبرَاهِيميُّ
في لقاء مع "مجلة الشبّان المسلمين"

فضيلة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي، شيخ علماء الجزائر، رجل من رجال الدّعوة الإسلاميّة والجهاد العربيّ، جعل من أيام حياته سلسلة متّصلة الحلقات من الكفاح والنّضال؛ اليوم يهب حياته -مدّ الله في عمره- لدينه الحنيف ووطنه العربيّ الكبير، وقد التقينا بالمجاهد العربيّ الكبير ودار بيننا وبينه هذا الحديث:

قلت لفضيلة الشّيخ محمد البشير الإبراهيميّ: هل لنا أن نعرف قصّة حياتكم ليستفيد شبابنا بما فيها من دروس رائعة؟

وأجاب فضيلته قائلا:

لقد ولدت في الجزائر في مقاطعة قسنطينة، وأصل عائلتي ومنازلها في الفروع المتمّمة لجبال أوراس من جهته الغربيّة، وهي في السّفوح المواجهة للتّلول، وهي فروع لجبال الأطلس الكبير الّتي تبتدئ مخارمه من ليبيا ويمتدّ غربا إلى المحيط الأطلسيّ بمراكش، وسلاسله من أطول سلاسل الدّنيا، وقد أقام أجدادي بهذه الجبال حقبة طويلة في التّاريخ، وكانوا كبقيّة قبائل الأطلس يحترفون الفلاحة وتربيّة الماشية، وكان لأجدادي تاريخ قديم في العلم يرجع إلى قرون، وكانوا مرجعا في الفتيا الدّينيّة، والصّلح بين العشائر مهما شجر بينهم من خلاف. وكانوا ملاذا لطلبة العلم لا تخلو بيوتهم من عشرات طالبي

العلم يرحلون إليهم من أقاصي البلاد، فيقومون بإطعامهم وتعليمهم، ومنهم من لا يخرج من بيتهم إلا عالما.

وفي هذه البيئة ولدت عام 1306 هجريّة عند طلوع الشّمس من يوم الخميس في الثّالث عشر من شهر شوّال ويوافق سنة 1889 ميلاديّة.

وأدركت من علماء بيتنا جدّي لأبي الشّيخ عمر الإبراهيمي وعمّي شقيق أبي الأصغر الشّيخ محمد المكّي الإبراهيمي، وهو الّذي تولّى تربيتي وتعليمي على طريقة خاصّة له في ذلك. ورزقت حافظة عجيبة وذاكرة قويّة، فاستغلّها عمّي في تعليمي؛ فكان يملي علي من شعر العرب القدماء والمحدثين، وحفظت القرآن الكريم مع معالم مفرداته وأنا ابن تسّع سنين، وحفظت مع ذلك في أثناء هذه المدّة المتون المهمّة في العلم، وتفقّهت وأنا في هذه السّن في قواعد النّحو والفقه والبلاغة.

وتابع فضيلة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي حديثه قائلا:

ولما بلغت العشرين سنة من عمري هاجرت إلى المدينة المنوّرة سنة 1911م ملتحقا بوالدي الّذي سبقني بالهجرة سنة 1908م، ومررت بالقاهرة فلبثت فيها ثلاثة أشهر أقضي غالب نهاري في التردّد على حلقات الدّرس بالجامع الأزهر. وحضرت دروس الشّيخ عبد الغنّي محمود في جامع سيدنا الحسين، ودروس الشّيخ يوسف الدجوري في الأزهر في البلاغة، ودروس الشّيخ نجيب في الرّواق العبّاسي، ودروس الشّيخ سعيد الموجي في الموطأ بجامع الفاكهاني.

وزرت أمير الشّعراء أحمد شوقي وقرأت عليه قصائد كثيرة من شعره الّذي وصل إلينا، كما زرت حافظا وقرأت عليه بعض ما أحفظه من قصائده؛ أذكر منها قصيدته اليائيّة في رثاء مصطفى كامل رحمهم الله أجمعين. ثم سافرت إلى المدينة عن طريق بور سعيد، حيفا، تبوك، المدينة المنوّرة، واجتمعت بوالدي. واخترت من مشايخ الحرم النّبويّ أبرعهم في العلم وأعلاهم كعبا فيه، فلزمت واحدا منهم وهو أستاذي الشيخ محمد العزيز الوزير التّونسيّ، وأخذت عنه الحديث وبعض أمهات النّحو وفقه مالك، ولازمته ما يقرب من ستّ سنوات. وكنت أتردّد على دروس المحدّثين مثل الشّيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهنديّ والشّيخ أحمد البرزنجي وغيرهما وكنت في مدّة الطّلب ألقي دروسا منظّمة في الأدب واللّغة في الحرم النّبويّ الشّريف.

وقال لنا فضيلة العالم الكبير:

ولما قامت الحرب الأولى الكبرى وقامت في أثنائها ثورة الشّريف حسين المعروفة أرغمتنا الدّولة العثمانيّة نحن معشر سكّان المدينة جميعا بالخروج إلى دمشق، فانتقلت مع والدي إلى الشّام واستوطنت دمشق، واشتغلت بالتّعليم الحرّ في المدارس الحرّة، ثمّ عيّنت رسميّا أستاذا للآداب العربيّة في المدرسة السّلطانيّة الأولى وهي أعلى مدرسة في دمشق إذ ذاك. إلى أن انتهت الحرب بقلب الأوضاع وخيبة الآمال واخترت الرّجوع إلى الجزائر. واشتغلت بإلقاء دروس متنوّعة في العربيّة والأدب العربي والفقه

والحديث والتّفسير والتّاريخ على طلاّب وجدتهم مستعدّين لذلك.

وهناك، وعلى تربة الوطن، كنت أجتمع كلّ أسبوع أو كلّ شهر على الأكثر بإمام النّهضات الجزائريّة من دينيّة وسياسيّة واجتماعيّة الشّيخ عبد الحميد بن باديس، وتلاقى فكرانا على هدف واحد وهو قيامنا بنهضة شاملة نحيي بها ما انْدَرَس من معالم العربيّة والإسلام بالوطن الجزائريّ.

وشرعنا نخطّط خططا لذلك وكيف نحارب الاستعمارين الرّوحي والبدنيّ في الجزائر، فهما اللّذان تواطآ على تجهيل الجزائر وتفقيرها بإبعادها عن الإسلام وعن العروبة وعن تاريخ الإسلام والعروبة وعن أمجاد الإسلام والعروبة. ولبثنا نفكّر ونقدّر عشر سنوات مع توسيع دائرة تعليمنا الخاصّ إلى أن جاءت سنة 1930، وتمّت لفرنسا مئة سنة على احتلالها للجزائر، فاحتفلت بذلك احتفالا عالميّا، وأعلن كثير من خطباء ذلك الاحتفال من الفرنسيّين فقالوا: إن معنى هذا الاحتفال الحقيقي هو تشيّيع المسيحيين لجنازة الإسلام.

وقد خيّب الله ظنّهم ورماهم بما كذّب فألهم، فبرزت جمعيّة العلماء للوجود سنة 1931 وكان من أعمالها في إحياء الإسلام الصّحيح وإحياء لسانه العربيّ المبين ما هو مشهور مسجّل في جرائدها الكثيرة.

وقلت لفضيلة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي:

كيف نقوّي الرّابطة بين الشّباب المسلم؟

فقال: معظم الشّباب المسلم اليوم مفكّك الأجزاء لا تربطه رابطة دينيّة ولا دنيويّة، وهذا أمر يؤسف له...

وسألت: ما هي الأسباب؟

فأجاب قائلا: أهمّ الأسباب لذلك يرجع إلى تنشئته، فالكثير من هؤلاء الشّباب لم ينشأ دينيّا؛ لا في البيت الّذي هو أوّل مدرسة في حياته، ولا في المدرسة الّتي هي آلة التّقويم الخلقيّ لتلامذتها، ولا في المجتمع. لذلك نشأ رخو الطّباع، والعهدة في هذا ترجع إلى الأبوين، وبيئة الأهل والأقارب الّذين يتقلّب الشّباب بينهم ويقضي زهرة شبابه في مخالطتهم صبحًا ومساءً، ثمّ على المدرسة التي تعلّم والّتي ما تزال في معظم الأحيان غير مجتهدة بحقّ في العناية بتربيّة الأخلاق الفاضلة وغرسها في نفس الشّاب، وما دام هذان العاملان مشتركين بين الشّباب فلا نطمع أن تسري هدى الصّلاح والفضيلة من فريق إلى فريق، ولا نطمع أن يعدي الصّحيح الأجرب، بل الواقع أن الطّالح يعدي الصّالح.

وسألت: ما هو العلاج؟

فأجاب: إنّ الأمر لم يخرج من أيدي دعاة الإصلاح بالمرّة، ففي أيدي هؤلاء الدّعاة إذا تضافرت جهودهم أن يتقدّموا إلى مدرّسي المساجد وخطباء الجُمَع ومحاضريّ المجامع والنّوادي بأن يركبوا طريقة غير الطّريقة المعهودة عندهم في الدّروس والخطب والمحاضرات، ويتّفقوا على أسلوب واحد في تربيّة الشّبيبة الإسلاميّة على الدّين والفضيلة والتّقوى، فهذه هي الباقيات الصّالحات الّتي ينبغي على

المدرّس والخطيب أو المحاضر أن يغرسها في نفوس الشّباب ويجتثّ منها أضدادها.

فإذا نشأ الشّباب على التّدين أحبّ الدّين، وإذا أحبّ ما فيه وأحبّ ما يستتبعه من فضائل وأخلاق حميدة، عمل على غرسها في نفوس غيره من الأجيال اللاّحقة. والشّباب أمّة مستقلّة، والشّباب يؤثّر في الشّباب، وإذا أحبّ الشّاب دينه وفضائل دينه، ولغته وأسرار لغته أحبّ العرب جميعا، وأصبح في نفسه دافع إلى الاجتماع بإخوانه في الدّين والعروبة.

يغذّي هذا الدّافع وينمّيه في نفسه بما يحضّ عليه الإسلام من الضرّب في الأرض والسّير في مناكبها والحقّ على التّعرف بين المسلمين، وذلك كلّه ممّا يقوّي الرّغبة في الأسفار وحبّ الرّحلة والاستطلاع والاستفادة. فإذا كانت الحكومات رشيدة أعانت على ذلك وساهمت فيه بالسّهم الوافر بعقد الرّحلات السّنويّة أو الشّهريّة من بعض أقطار الإسلام إلى البعض الآخر.

وقال فضيلة الشّيخ محمد البشير الإبراهيميّ:

وأنا أرى أن الأزهر وسائر معاهدنا مثل جامع الزّيتونة في تونس، وجامع القرويين بفاس، يجب أن تتحمّل القسط الأوفر من العمل على تقوية الرّوابط بين الإخوة المسلمين، والأزهر جامعة لجميع الأمم الإسلاميّة: ففيه المسلم الشّرقيّ والغربيّ، وفيه الجنوبيّ والشّمالي، فهو قادر على أن يلقّنهم ويجعلمن ضمن دروسه المفروضة عليهم دروسا خاصّة للتّحبيب في السّفر والضّرب في

مناكب الأرض للتّحصيل على فوائد جمّة أهمها التّعارف بين شباب الإسلام لأنّهم حملة الإسلام في المستقبل، والمؤتمنون علٰى الدّعوة إليه.

وكيف نطمع في التّبشير بالإسلام في الأقطار الوثنيّة إذا لم نجهز جيشا من الشّباب ونسلحهم بالسّلاح اللاّزم لذلك من أخلاق أقواها العزيمة والتّضحيّة والصّبر على المكاره وتحمّل المشاق، فلم ينتشر الدّين في أوّل أمره إلا برجال من هذا الطّراز العالي.

وقد لاحت لنا بوارق من تحقيق الأمل في هذه المسألة في السّنوات الأخيرة وذلك بكثرة المؤتمرات الّتي تعقد بالقاهرة ويشارك فيها أبناء أفريقيا وآسيا وشبابها بصورة واسعة.

لكنّنا كنّا عزلا من سلاح هذه المؤتمرات، ولذلك حرمنا من ثمرات اجتماع الشّباب في صعيد واحد بتفريطنا الماضي وتقصيرنا في تهيئة الشّباب المسلم المهتدي المجهّز لميادين الدّعوة.

يلي هذا العامل عامل آخر فعّال، وهو الجرائد والمجلاّت المصريّة الإسلاميّة الّتي تعرض على الشّباب في جميع أوقاته، فيأخذ منها ما ينبه إحساسه ويثير عزيمته إلى التّعارف بإخوانه من شبيبة الإسلام في جميع الأقطار.

لكنّ المجلاّت الإسلاميّة عندنا لا تزال قليلة وسبل نشرها في العالم الإسلاميّ متعذّرة.

ومن أدوات التّعارف الفعّالة في هذا البلد-وهو تعارف الشّباب وترابطه-أداة لو رزقت الاتّجاه الصّحيح لاتت بالعجائب، إنّها الإذاعة، فلو تنبّه العاملون لربط

الشّباب العالميّ إلى الشّباب الإسلاميّ وتعارفه روحيّا قبل كلّ شيء لأتى ذلك الجهد بأطيب الثّمرات. وهذا يتوقّف على تكاتف المرشدين والمربّين لينظّموا محاضرات ودروسا خاصّة بهذا المعنى، ويحدّدوا لها ساعات متفرّقة من اللّيل والنّهار، لتذاع وتوجّه خاصّة إلى الشّبان المسلمين في جميع أقطار الأرض، وتخصّهم بالخطاب تنويها بالموضوع وتمجيدا للشّبان.

فلعمري إنّ هذه الدّعوة لو تكرّرت وتجاوب في الدّعوة إليها والحضّ عليها جميع الإذاعات في الأقطار الإسلاميّة لأتت بخوارق العادات في هذا الباب.

والله الموفق إلى الخير، والله الهادي إلى السّبيل.[1]

آخِرُ أعْمَالِ الإبراهيميّ:

وقف الشّيخ محمّد البشير الإبراهيميّ إلى جانب الثّورة الجزائريّة المباركة منذ أوّل يوم انطلقت فيها شرارتها ببياناته ودعواته وسعيه لمؤازرتها وإلى حثّ الأمّة على الالتفاف حولها، كما مهّد لها من قبل بالتّربية والتّوعيّة والتّعليم والتّنبيه، أيّد الثّورة بصراحة وفي علن قبل غيره من الشّخصيات، وقد أصدر، وهو في مصر نداءات وبيانات تأييد متتالية لدعم الثّورة.

---

(1) المصدر السابق ج5، ص298، ومجلة الشّبان المسلمين القاهرة ع66، أغسطس 1962.

بَيانُه حول مَبادئ الثّورةِ في الجَزائر:

لقد أصدر الشّيخ بعد يوم من اندلاع الثّورة، يوم 02 نوفمبر 1954م بيانا بعنوان: **مبادئ الثّورة في الجزائر**، وهذا بعض ما جاء فيه:

"أذاعت عدّة محطات عالميّة في الليلة البارحة أنّ لهيب ثورة اندلع في عدّة جهات من القطر الجزائريّ، وسمّت عدّة بلدان من وطننا العزيز بعضها صحيح اللّفظ، وبعضها محرّف، ولكنّنا عرفناها ولو من لحن القول، لأنّها أفلاذ من ذلك الوطن العزيز الذي لا نسلوه ولو سلا المجنون ليلاه، لأننا درجنا على ثراه من نوط التّمائم، إلى لوث العمائم، وستختلط مع ثراه أعظمنا الرّمائم.

ثمّ قرأنا في جرائد اليوم بعض تفصيل لما أجملته الإذاعات، فخفقت القلوب لذكرى الجهاد الذي لو قسمت فرائضه لكان للجزائر منه حظّان بالفرض والتّعصيب، واهتزّت النّفوس طربا لهذه البداية التي سيكون لها ما بعدها، ثمّ طرفنا طارق الأسى لأن تكون تلك الشّجاعة التي هي مضرب المثل لا يظاهرها سلاح، وتلك الجموع الّتي هي روق الأمل لا يقودها سلاح. إن اللّحن الذي يشجي الجزائري هو قعقعة الحديد في معمعة الوغى وإنّ الرّائحة الّتي تعطّر مشامه هي رائحة هذه المادّة التي يسمّونها البارود.

أمّا نحن المغتربين عن الجزائر فو الله لكأنّما حملت إلينا الرّياح الغربية -حين سمعنا الخبر- روائح الدم زكية، فشارك الشمّ الذي نشق السّمع الذي سمع والبصر الذي

قرأ، فيتألّق من ذلك إحساس مشبوب يصيرنا -ونحن- في القاهرة وكأننا في مواقع النّار من خنشلة وباتنة.

هذه بوادر الانفجار الذي يؤدّي إليه الضغط، على كلّ واع في الأرض إلاّ فرنسا، وهذا هو الحرف الأوّل من أبجديّة أطول من الأبجديّة الصّينية مما تنطوي عليه نفس الجزائري لفرنسا من غلّ وحقد وبغضاء، ومن غرس الحنظل جنى المرّ، فقد غرست فرنسا أسباب هذه المعاني في نفسه، ثما عاملته معاملة لا يعامل الحيوان الأعجم بعشر معشارها، في حقبة من الزّمن تمتدّ إلى مائة وأربع وعشرين سنة.

وهذه عواقب السّياسة البليدة الّتي تسوس بها فرنسا شمال أفريقيا في هذا الزّمن الذي تحرّك فيه حتّى الحجر، وثارت فيه كلّ الشّعوب المظلومة تنتصر لنفسها من ظلم الطّغاة، فلم تتّعظ فرنسا بشيء من ذلك، ولم توقظها النّذر المتلاحقة والحروب الماحقة، ولا ذكرت أمسها القريب حين أحاطت بها خطيئَاتُها وأَوْبَقَتْها جرائرُها فسقطت فريسة تحت أرجل عدّوها في مثل فواق الحالب. ووالله لو أنّ فرنسا أبقت في قلوبنا مثقال ذرّة من الرّحمة لها، لأشفقنا عليها من هذا الإفلاس الذي أصابها في رأس مالها من مال ورجال ورأي وفكر، حتّى لو أنّ قائلا قال لها: إنّ اليوم غير الأمس، لحاولت من عنادها أن ترد الشّمس.

تأجّج اللّهيب بتونس فقلنا: هذا نذير من النّذر الأولى، وعسى أن تكون لفرنسا فيه عبرة، وتأجّج في مراكش، فقلنا عسى أن يكون لها فيه مزدجر، وها هو ذا

يتأجّج في الجزائر، ولو كانت فرنسا على بقيّة من كياس وعقل لجارت تيار الزّمن ولم تعاكسه ولضَمِنَتْ لنفسها البقاء مع النّاس ولو بضع سنين، فأمّا الدّوام مع الظلم فلا مطمع فيه، وإن كانت في ريب من تحوّل الأحوال فلتسأل رفات أمّها روما... ولكن الذي علمناه من احتكاكنا بهذه المخلوقة العجيبة ودرسناه من أهوائها وطبائعها أنّها لا تصدر عن عقل، ولا ترد على بصيرة، وأنّها لا ترضى المشاركة في الحياة وأن القاعدة الّني تبني عليها أمرها هي: إمّا ربح كامل، وإمّا خسار شامل، وإنّ حياتها مشروطة بموت غيرها، وعليه فلماذا تلوم النّاس إذا اعتقدوا أنّ حياتهم مشروطة بموتها؟

الشّمال الإفريقي قطع متجاورات من إرث العروبة والإسلام، اجتمعت في كلّ شيء وهو من صنع الله، واجتمعت في شيء واحد من عقل الشّيطان وهو الاستعمار الفرنسي، فإذا اجتمعت اليوم في الثورة على ظلم فرنسا وطغيانها، فلعلّ هذا هو آخر الجوامع الإلهية التي تغض بها إلى أولها، كما تغض الحلقة الأخيرة من السلسلة المفصومة إلى الحلقة فإذا هي دائرة...

ومن صنع الله للأمم الضّعيفة حينما يهيّئها لأن تكون من الأئمّة الوارثين أن يخلف فيها من الاستعدادات ما لم يكن فهو كائن، فكيف بالأمّة التي أعطاها كلّ شيء، فملكت بالعدل وساست بالإحسان، وسارت على نور الحقّ، ثم زاغت عن صراطه قليلا فتخلّى عنها قليلا، وها هي

ترجع إليه قليلا، وتسير إلى مرضاته دبيبا، وتغيّر ما بنفسها عسى أن يغيّر حكمه عليها..."[1]

نِدَاؤُه إلى الشَّعْبِ الجَزائريِّ المُجَاهِد:

ووجّه الإبراهيمي بعد أسبوعين من اندلاع الثّورة يوم 15 نوفمبر 1954م نداء إلى الشّعب الجزائريّ، بعنوان: (**نِدَاءٌ إلَى الشَّعب الجَزائِرِيِّ المُجَاهِد... نُعيذكم بالله أن تَتَرَاجَعُوا...**) ورد فيه: "

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّها المسلمون الجزائريّون:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حَيّاكُمُ الله وأَحيَاكُم، وأَحْيَا بِكُم الجزائر، وجعَل منكم نُورًا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصّوت الذي يسمع الآذان الصّم، وهذا هو الدّواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللّغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطلق الذي يقوّم القلوب الغلف، وهذا هو الشّعاع الذي يخترق الحجب والأوهام.

كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسيّ لدياركم، فيعجب كيف لم تثوروا، وكان يسمع أنينكم وتوجّعكم منه، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم إلى المجازر البشريّة، في الحروب الاستعماريّة، فتموت عشرات الآلاف منكم في غير شرف ولا محمدة، بل في سبيل فرنسا،

---

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص37.

وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أنّ تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء وكنتم بهم سعداء.

أيّها الإخوة الجزائريّون:

اذكروا غدر الاستعمار ومماطلته.

احتلّت فرنسا وطنكم منذ قرن وربع قرن، وشهد لكم التّاريخ بأنّكم قاومتموها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين ومتفرّقين، نصف هذه المدّة.

فما رعت في حربها لكم دينا ولا عهدا، ولا قانونا ولا إنسانيّة، بل ارتكبت كلّ أساليب الوحشيّة، من تقتيل النّساء والأطفال والمرضى، وتحريق القبائل كاملة، بديارها وحيواناتها وأقواتها.

ثمّ حاربتم معها في صفها، وفي سبيل بقائها نصف هذه المدة، ففتحتم بأبنائكم الأوطان وقهرت بهم أعداءها، ورحمت بهم وطنها الأصلي، فما رعت لكم جميلا، ولا كافأتكم بجميل، بل كانت تنتصر بكم، ثم تخذلكم، وتحيا بأبنائكم، ثمّ تقتلكم، كما وقع لكم معها في شهر مايو سنة 1945، وما كانت قيمة أبنائكم الّذين ماتوا في سبيلها، وجلبوا لها النّصر، إلا أنّها نقشت أسماء بعضهم في الأنصاب التّذكاريّة، فهل هذا هو الجزاء؟

طالبتموها بلسان الحقّ، والعدل، والقانون، والإنسانيّة، من أربعين سنة، بأن ترفق بكم، وتنفّس عنكم الخناق قليلا، فما استجابت. ثمّ طالبتموها بأن تردّ عليكم بعض حقوقكم الآدميّة، فما رضيت. ثمّ طالبتموها بحقّكم

الطّبيعيّ، يقرّكم عليه كلّ إنسان، وهو إرجاع أوقافكم ومعابدكم وجميع متعلّقات دينكم، فأغلقت آذانها في إصرار وعتوّ. ثمّ ساومتموها على حقوقكم السّياسيّة بدماء أبنائكم الغاليّة التي سالت في سبيل نصرها، فعميت عيونها عن هذا الحقّ الّذي يقرّره حتّى دستورها، ثم هي في هذه المراحل كلّها، سائرة في معاملتكم من فظيع إلى أفظع.

أيّها الإخوة الجزائريّون الأبطال:

لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون عليه، أو تدارونها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعلّلون به. أتخافون على أعراضكم وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة وقد استباحتها. لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا، أسعدكم من يعمل فيها رقيقا زراعيّا يباع معها ويشترى، وحظّكم من خيرات بلادكم النّظر بالعين والحسرة في النّفس؟ أم تخافون على القصور، وتسعة أعشاركم يأوون إلى الغيران كالحشرات والزّواحف؟ أم تخافون على الدّين؟ ويا ويلكم من الدّين الّذي لم تجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام: ابتلعت أوقافه وهدمت مساجده، وأذلّت رجاله، واستعبدت أهله، ومحت آثاره من الأرض، وهي تجهد في محو آثاره من النّفوس.

أيّها الإخوةُ المسلِمُونَ:

إنّ التّراجعَ معناه الفَنَاء.

إنّ فرنسا لم تبق لكم دينا ولا دنيا، وكلّ إنسان في هذا الوجود البشريّ إنّما يعيش لدين ويحيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها.

وإنّها سارت بكم من دركة إلى دركة، حتّى أصبحت تتحكّم في عقائدكم وشعائركم وضمائركم، فالصّلاة على هواها لا على هواكم، والحجّ بيدها لا بأيديكم، والصّوم برؤيتها لا برؤيتكم، وقد قرأتم وسمعتم من رجالها المسؤولين عزمها على إحداث (إسلام جزائري) ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصّلة بمنبعه في الشّرق وبأهله من الشّرقيين.

إنّ الرضى بسلب الأموال قد ينافي الهمّة والرّجولة، أمّا الرّضى بسلب الدّين والاعتداء عليه فإنّه يخالف الدّين، والرّضى به كفر بالله وتعطيل للقرآن.

إنّكم في نظر العالم العاقل المنصف لم تثوروا، وإنّما أثارتكم فرنسا بظلمها الشّنيع وعتوّها الطّاغي، واستعبادها الفظيع لكم قرنا وربع، وامتهانها لشرفكم وكرامتكم وتعديها المريع على مقدساتكم.

إنّ أقلّ القليل ممّا وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسيّ يوجب عليكم الثّورة عليه، من زمان بعيد، ولكنّكم صبرتم، ورجوتم من الصّخرة أن تلين، فطمعتم في المحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحرّ الأبيّ فنعيذكم بالله وبالإسلام أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم. إنّ التّراجع معناه الفناء الأبديّ والذّل السّرمديّ.

إنّ شريعة فرنسا أنّها تأخذ البريء بذنب المجرم، وأنها تنظر إليكم مسالمين أو ثائرين نظرة واحلة، وهي أنّها عدوّ لكم وأنّكم عدوّ لها. ووالله لو سألتموها ألف سنة، لما تغيّرت نظريّتها العدائية لكم، وهي بذلك مصمّمة على محوكم ومحو دينكم وعروبتكم، وجميع مقوماتكم.

إنّكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشّرف على حياة العبوديّة الّتي هي شرّ من الموت.

إنّكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة الّتي هي شعاركم في التّاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم.

ما كان المسلم أن يخاف الموت، وهو يعلم أنّها كتاب مؤجّل، وما كان للمسلم أن يبخل بماله أو بمهجته؛ في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم أنّها قربة إلى الله وما كان له أن يرضى الدّنيّة في دينه، إذا رضيها في دنياه.

أخلصوا العمل وأخلصوا بصائركم في الله واذكروا دائما، وفي جميع أعمالكم، ما دعاكم إليه القرآن من الصّبر في سبيل الحقّ، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدّين، واذكروا قبل ذلك كلّه قول الله ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ وقول الله: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَة كَثيرَةً بِإِذْنِ الله واللهُ مَعَ الصّابِرِينَ**﴾.

أيّها الإِخْوَةُ الأَحْرَارُ:

هَلُمُّوا إلى الكِفَاحِ المُسَلَّحِ.

إنّنا كلّما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدّين الإسلاميّ في الجزائر، وذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا لشيء إلاّ لأنّهم مسلمون، كلّما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وخجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصّرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلّما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنّما هو الكفاح المسلح فهو الّذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه، إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السّبيل الواحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه الجنّة، وإما حياة وراءها العزّة والكرامة.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته."[1]

خُطْبَتُهُ الأولى فِي جَامِعِ كتشاوة:

بذل الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي ما في وسعه من جهود ومساع، هو ومن معه، وعلى كلّ الأصعدة لخدمة الثّورة ولنصرتها، ولنصرة قضية شعبه العادلة، وبعد الاستقلال 1962، عاد إلى الجزائر، وألقى أوّل خطبة جمعة بمسجد كتشاوة بالجزائر العاصمة يوم 02 نوفمبر 1962 ميلادية الموافق لـ5 جمادى الثّانية 1382 هجريّة، ذلك المسجد الّذي حوّله الاستعمار إلى كاتدرائيّة، وممّا ورد في تلك الخطبة المشهودة:"

الحمد لله ثمّ الحمد لله تعالت أسماؤه وتمّت كلماته صدقا وعدلا، لا مبدّل لكلماته، جعل النّصر يتنزّل من

---

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص33.

عنده على من يشاء عباده حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نيّاتهم، وصفاء سرائرهم، وطهارة ضمائرهم.

سبحانه وتعالى جعل السّيف فرقانًا بين الحقّ والباطل، وأنتج من المتضادّات أضدادها، فأخرج القوّة من الضّعف، وولد الحرّية من العبوديّة، وجعل الموت طريقا إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقا، وبايعه عباده المؤمنون الصّادقون على الموت، فباءوا بالصّفقة الرّابحة، و﴿**اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الجَنَّة يُقاتلُونَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**﴾...

سبحانه تعالى جدّه، تجلّى على بعض عباده بالغضب والسّخط فأحال مساجد التّوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتّثليث، وتجلّى برحمته ورضاه على آخرين فأحال فيهم كنائس التّثليث إلى مساجد للتّوحيد، وما ظلم الأوّلين ولا حابى الآخرين، ولكنّها سنّته في الكون وآياته في الآفاق يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتّى استقام دين الحقّ في نصابه، وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه، وجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصّبر، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وكلّ متّبع لهداه، داع بدعوته إلى يوم الدّين.

ونستنزل من رحمات الله الصّيّبة، وصلواتها الزّاكية الطّيبة لشهدائنا الأبرار ما يكون كفاء لبطولتهم في الدّفاع عن شرف الحياة وحرمات الدّين وعزّة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

وأستمدّ من الله اللّطف والإعانة لبقايا الموت وآثار الفناء ممّن ابتلوا في هذه الثّورة المباركة بالتّعذيب في أبدانهم والتّخريب لديارهم والتّحييف لأموالهم. وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمّة، ألفة تجمع الشّمل، ووحدة تبعث القوّة، ورحمة تضمّد الجراح، وتعاونا يثمر المنفعة، وإخلاصا يهوّن العسير، وتوفيقا ينير السّبيل وتسديدا يقوّم الرّأي ويثبّت الأقدام، وحكمة مستمدّة من تعاليم الإسلام وروحانيّة الشّرق وأمجاد العرب، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النّفوس، بعد أن قطعت دابره من الأرض.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كلّ داع يدعو إلى الفرقة والخلاف، وكلّ ساع يسعى إلى التّفريق والتّمزيق وكلّ ناعق ينعق بالفتنة والفساد.

ونحيي بالعمار والثّمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام التي نسمّيها الجزائر، والّتي فيها نبتنا، وعلى حبّها ثبتنا، ومن نباتها غذّينا وفي سبيلها أوذينا.

أحيّيك يا مغنى الكمال بواجب وأنفق في أوصافك الغرّ أوقاتي

يا أتباع محمد عليه السّلام هذا هو اليوم الأزهر الأنور وهذا هو اليوم الأغرّ المحجّل، وهذا هو اليوم المشهود في

تاريخكم الإسلاميّ بهذا الشّمال، وهذا اليوم هو الغرّة اللاّئحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التّاج المتألّق في مفرقها، والصّحيفة المذهّبة الحواشي والطرر من كتابها.

وهذا المسجد هو حصّة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التّاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين وهذه بضاعتكم ردّت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلابا، وأخذتموها منه غلابا، بل هذا بيت التّوحيد عاد إلى التّوحيد، وعاد إليه التّوحيد فالتقيتم جميعا على قدر.

إنّ هذه المواكب الحاشدة بكم من رجال ونساء يغمرها الفرح، ويطفح على وجوهها البشر لتجسيم ذلك المعنى الجليل، وتعبير فصيح عنه، وهو أنّ المسجد عاد إلى السّاجدين الركّع من أمّة محمد، وأنّ كلمة لا إله إلا الله عادت لمستقرّها منه كأنّ معناها دام مستقرّا في نفوس المؤمنين، فالإيمان الّذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله، وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثّورة.

وأمّا والله لو أنّ الاستعمار الغاشم أعاده إليكم عفوا من غير تعب، وفيئة منه إلى الحقّ دون نصب، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الرّوعة والجلال.

يا معشر الجزائريين إذا عدّت الأيام ذوات السّمات، والغرر والشّيات في تاريخ الجزائر فسيكون هذا اليوم

أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تمجيدا، فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنّا نمرّ على هذه السّاحة مطرقين.

ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض يصهر الجوانح ويسيل العبرات، كأنّ الأرض تلعننا بما فرّطنا في جنب ديننا وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلاّ الحوقلة والاسترجاع، ثمّ نرجع إلى مطالبات قوليّة هي كلّ ما نملك في ذاك الوقت، ولكنّها نبّهت الأذهان، وسجّلت الاغتصاب، وبذرت بذور الثّورة في النّفوس حتّى تكلّمت البنادق.

أيّها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريبا، لأنّ البغي مما ركّب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيبا لأنّ في الإنسان عرقا نزّاعا إلى الحيوانات وشيطانا نزّاغا بالظلم، وطبعا من الجبلة الأولى ميّالا إلى الشّر، ولكنّ العجيب الغريب معا، والمؤلم المحزن معا، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد النبي بشّر به عيسى روح الله وكلمته.

يا معشر المؤمنين: إنّكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصّبيان ساعة ثمّ تنقضي، ولكنّكم استرجعتم معانيه الّتي كان يدلّ عليها المسجد في الإسلام ووظائفه الّتي كان يؤدّيها من إقامة شعائر الصّلوات والجمع والتّلاوة ودروس العلم النّافعة على اختلاف أنواعها، من دينيّة ودنيويّة، فإنّ المسجد كان يؤدّي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة.

أيّها المسلمون: إن الله ذمّ قوما فقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾، ومدح قوما فقال: ﴿**إنّما يعمر مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليَومِ الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلَاةَ وآتى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إلاّ الله، فَعَسَى أولئك أن يكُونوا مِنَ المُهْتَدِينَ**﴾.

يَا مَعْشَرَ الجزائريين، إنّ الاستعمار كالشّيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: ((إن الشّيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنّه رضي أن يطاع فيما دون ذلك))، فهو قد خرج من أرضكم ولكنّه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضّرورة يقدّر بقدرها.

يا مَعْشَرَ الجزائريين. إنّ الثّورة قد تركت في جسم أمّتكم نُدُوبًا لا تندملُ إلا بعد عشرات السّنين، وتركت عشرات الآلاف من اليتامى والأيامى والمشوّهين الّذين فقدوا العائل والكافل وآلة العمل فاشملوهم بالرّعاية حتّى ينسى اليتيم مرارة اليتم وتنسى الأيم حرارة الثّكل وينسى المشوّه أنّه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان فإنّهم أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم.

يا إخواني: إنّكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس، وإنّكم اشتريتم حرّيتكم بالثّمن الغالي، وقدّمتم في سبيلها من الضّحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض قديما ولا حديثا وحزتم من إعجاب العالم بكم ما

لم يحزه شعب ثائر، فاحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلّكم الشّيطان، فتشوّهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثّورة أو تقضوا على هذه السّمعة العاطرة.

إنّ حكومتكم الفتيّة منكم، تلقّت تركة مثقلة بالتّكاليف والتّبعات في وقت ضيّق لم يجاوز أسابيع، فأعينوها بقوّة، وانصحوها فيما يجب النّصح فيه بالتي هي أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السّفاسف والصّغائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتّجديد، والبناء والتّشييد، ولا تجعلوا للشّيطان بينكم وبينها منفذا يدخل منه، ولا لحظوظ النّفس بينكم مدخلا.

وفّقكم الله جميعا، وأجرى الخير على أيديكم جميعا، وجمع أيديكم على خدمة الوطن، وقلوبكم على المحبّة لأبناء الوطن، وجعلكم متعاونين على البّر والتّقوى غير متعاونين على الإثم والعدوان.

قال تعالى: **﴿وعَدَ اللهُ الذِينَ آمنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّلحَات لَيَسْتَخْلِفنَّهُم فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِين مِنْ قَبلِهِم، وَلَيُمَكِّنن لهم دِينهم الذي ارْتَضَى لَهُم وَليبدلنَّهم مِن بَعدِ خَوْفِهم أمْنًا يَعبدُونني لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾**.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرّحيم."[1]

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص305.

بَيَانُه يوْم 16 أفريل 1964:

لقد أصدر الشّيخ محمد البشير الإبراهيميّ بعد ذلك، نظرا للاتّجاه الذي اختاره قادة الجزائر المستقلّة والّذين أخذوا زمام الحكم، وصبغة النّظام الّذي أرادوه، على غير المرجوّ منهم، بيانه الشّهير، في يوم 16 أفريل 1964، وهو على فراش المرض، قال فيه: "

بسم الله الرّحمن الرّحيم

كتب الله لي أن أعيش حتّى استقلال الجزائر ويومئذ كنت أستطيع أن أواجه المنيّة مرتاح الضّمير، إذ تراءى لي أنّي سلّمت مشعل الجهاد في سبيل الدّفاع عن الإسلام الحقّ والنّهوض باللّغة العربيّة -ذلك الجهاد الّذي كنت أعيش من أجله- إلى الّذين أخذوا زمام الحكم في الوطن، ولذلك قرّرت أن ألتزم الصّمت.

غير أنّي أشعر أمام خطورة السّاعة وفي هذا اليوم الّذي يصادف الذّكرى الرّابعة والعشرين لوفاة الشّيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله-، أنّه يجب عليّ أن أقطع ذلك الصّمت، إنّ وطننا يتدحرج نحو حرب أهليّة طاحنة ويتخبّط في أزمة روحيّة لا نظير لها ويواجه مشاكل اقتصاديّة عسيرة الحلّ.

ولكنّ المسؤولين -في ما يبدو- لا يدركون أنّ شعبنا يطمح قبل كلّ شيء إلى الوحدة والسّلام والرّفاهيّة، وأنّ الأسس النّظريّة الّتي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تبعث من صميم جذورنا العربيّة والإسلاميّة لا من مذاهب أجنبيّة.

لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النّزاهة وألاّ يقيموا وزنا إلاّ للتّضحيّة والكفاءة وأن تكون المصلحة العامّة هي أساس الاعتبار عندهم، وقد آن أن يرجع إلى كلمة الأخوّة الّتي ابتذلت - معناها الحقّ، وأن نعود إلى الشّورى الّتي حرص عليها النّبيّ صلىّ الله عليه وسلم.

وقد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيّدوا جميعا مدينة تسودها العدالة والحريّة، مدينة تقوم على تقوى من الله ورضوان". [1]

وَفَاتُه:

بعد الاستقلال، وإثر عودة الإبراهيميّ إلى أرض الوطن، وعقب خَيْبَةٍ كبيرَةٍ في الاختيارات السّياسيّة الّتي تبنّتها السّلطة للشروع في بناء الدّولة الفتيّة، وقد تقدّمت به السِّنُّ واضطَرَبت صِحّتُه، ولقي الإقصاء والتّهميش، اضطرّ إلى لُزوم بيته وتقليل نشاطه، إلى أن توفّاه ربّه إليه مجاهدا صادقا ثابتا، غير مبدّل، جريئا في كلمة الحقّ، وقد كان ذلك بمنزله في يوم 20 مايو سنة 1965[2].

الشَّبَاب الجَزائريّ كَمَا تمثّله لي الخَواطِرُ:

أتمثّلُهُ مُتسَامِيًا إلى مَعَالِي الحَياةِ، عرِيبدَ الشَّبَابِ في طَلبِهَا، طَاغيًا عن القُيودِ العَائِقَةِ دونَها، جَامِحًا عَن الأعنَّة الكَابِحةِ في مَيدَانها، مُتَّقدَ العَزمَاتِ، تَكَاد تَحْتَدِمُ جوَانِبُه مِن ذكَاءِ القَلْبِ، وشَهَامَةِ الفُؤادِ، ونشَاط الجَوارح.

---

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج5، ص317.

(2) هذا تاريخ وفاته التي ذكره نجله أحمد طالب الإبراهيمي في الجزء 5 من الآثار، ص13.

أَتَمَثَّلُه مِقْدَامًا عَلَى العَظَائِم في غَيْرِ تَهَوُّر، مِحْجَامًا عَنِ الصَّغَائر في غَيْرِ جُبْن، مُقَدِّرًا مَوقِعِ الرِّجْلِ قَبْلَ الخَطْوِ، جَاعِلًا أَوَّلَ الفِكْرِ آخِرَ العَمَلِ.

أَتمثَّلُهُ وَاسِعَ الوُجود، لا تَقِفُ أمَامَه الحُدودُ، يَرَى كُلَّ عَربيّ أخًا لهُ، أُخوَّة الدم، وكلَّ مُسلم أخًا لهُ، أخُوَّةَ الدّين، وكلَّ بَشَر اخا له أُخوَّةَ الإنْسَانِيَّةِ، ثُمّ يُعطي لكلّ أخُوَّة حقّها فضْلًا أو عَدْلاً.

أَتَمثّلُهُ حليف عمل، لا حَليفَ بِطالَةٍ، وحِلْسَ مَعْمَلٍ، لا حِلْسَ مَقْهَى، وبَطلَ أعمَالٍ، لا مَاضِغَ أقوَال، ومُرتَادَ حَقيقَةٍ، لا رَائدَ خَيَال.

أَتمثَّلُهُ برًّا بِالبَدَاوَةِ الّتي اخْرَجَتْ مِن أَجْدَادِه أَبْطَالاً، مُزوَرًّا عَنِ الحَضَارَةِ الَّتي (رمتْه بقُشُورهَا)، فَأَرْخَتْ أَعْصَابَهُ، وأنَّثت شمائِلَهُ، وخنَّثت طِباعَه، وقيَّدته بخُيوط الوَهْمِ، وبجَّن في نَبْعه الطَّاهر السُّموم، وأذْهبت مِنه مَا يُذهِبُ القَفصُ مِنَ الأسَدِ مِنْ بَاسٍ وصَوْلَةٍ.

أتمثَّلهُ مُقْبِلاً على العلْم والمعرفَةِ ليَعْمَلَ الخَير والنَّفْعَ، إقْبَال النَّحْلِ عَلى الأزْهار والثِّمَار لتصنع الشَّهْدَ والشَّمع، مُقبلاً على الارتزَاق، إقبال النَّمْل تجدُّ لتجِدَ، وتدَّخر لتَفتَخر، ولا تُبَالي مَا دامت دائبَةً، أنْ ترجع مَرَّةً مُنجِحةً ومرّة خائِبة.

أحبُّ منه مَا يُحبُّ القائل:

أحِبُّ الفَتَى يَنْفِي الفَوَاحِشَ سَمْعُهُ
كأنَّ بِهِ عن كلِّ فَاحِشَةٍ وَقْرا

وأَهْوَى منه ما يَهْوَى المتنبّي:

وأهْوى مِنَ الفِتْيَان كُلَّ سَمَيْدع
أَريبٍ كَصَدْر السَّمَهْرِيّ ا لمقوّم
خَطَّتْ تَحْتَه العِيسُ الفلاةَ وَخالطَتْ
به الخَيْلُ كبَّأت الخَميس العرَمْرم

يَا شَبَابَ الجَزائر، هَكَذَا كُونوا!... أو لا تكونوا!...

أَتمثّلُهُ محمديَّ الشّمائل، غير صخّاب و لا عيّاب، و لا مُغْتَابٍ ولا سبّاب، عفًّا عَن مَحَارم الخَلْق ومَحارمِ الخَالِق، مَقْصُورَ اللِّسَان إلاّ عن دعْوةٍ إلى الحقّ، أَو صرْخَةَ في وجْه الباطل، مُتَجَاوزًا عمَّا يكْرَه مِن إخْوَانِهِ، لا تَنْطَوِي أحنَاؤه عَلَى بُغْض ولاَ ضَغِينَةٍ.

أَتَمثَّلُه مُتقَلّبًا في الطّاهِرينَ والطَّاهِرَاتِ، ارْتضَعَ أفَاويق الإصلاَحِ صَبِيًّا، وزَرَّتْ غلائِلُه عَليه يَافِعًا، فنَبتَتْ في حِجْرِه، ونبتَت قوَادِمُه في وكْره، ورفْرفَت أجْنِحَتُهُ فِي جوّه، لم يمسَسْه زَيْغُ العقيدة، ولا غَشِيت عقلَه سُحُبُ الخُرافات، بل وجَد المنهجَ واضحًا فَمَشَى على سَوائه، والأَعلام منصوبَةً، فسَار على هُداها، واللّواءَ معقُودًا، فَأوَى إلى ظلِّه، والطَّريق معبّدًا، فخَطَا آمِنًا من العِثَار، فما بَلغ مبلغ الرِّجَال إلاّ وهُو صحيحُ العقد في الدّين، مَتينُ الاتِّصال بِالله، مملوءُ القَلب بالخوْفِ منهُ، خَاوى الجوانح من الخوف من المخلُوق، قَويُّ الإيمان بالحياة، صحيحُ النَّظر في حقائقها، ثابتُ العزيمة في المزاحمةِ عليها، ذَلِقُ اللّسان في المطالبةِ بها، ناهضُ الحُجّةِ في الخُصُومة لأجلِهَا، يأبَى أن يكون حظُّهُ مِنْهَا الأخَسّ الأوكَس، أمَنَ بعقله وفكره أن يضلّل في الحياة كمَا أَمَنَ بهما أن يضلَّلَ في الدّينِ.

((وفي الحياةِ كمَا في الدّين تَضليلُ))

يَا شَبَاب الجَزائر!

مَا قِيمَةُ الشَّبَابِ؟ وَإنْ رقَّت أنداؤُه، وتَجَاوبَتْ أَصْدَاؤُه، وقُضِيَتْ أَوْطَارُهُ وغَلَا مِنْ بين أطوَار العُمر مِقْدَارُه، وتَنَاغَتْ على أَفنَان الأَيّام واللّيَالِي أَطْيَارُه، وتَنَفّست عن مثْل رُوح الرّبيع أزهَارُه، وطَابَت بين انْتِهَابِ اللّذات واقتِطَافِ المَسرَّات أصَائِلُه وأسْحَارُه. بلْ مَا قِيمَةُ الكُهُولَةِ؟ وإن استمْسَكَ بُنيانُهَا، واعتَدَلَ مِيزانُهَا، وفُرَّت عن التّجربة والمِراسِ أسنَانُها، ووُضِعَتْ على قوَاعِد الحِكْمَةِ والأَناة أركانُها. بلْ مَا قِيمَةُ المَشيبِ؟ وإنْ جلَّله الوَقَارُ بمُلاءَتِه، وطواه الاخْتبَارُ في عَباءَتِه، وامْتلَأَتْ من حكمة الدُّهُور، وغرائب العُصُور، حَقائِبُه، ووُصِلَت بخُيُوط الشَّمْسِ، لا بفتائِل البُرْسِ، جماتُه وذَوائبُه.

مَا قِيمَةُ ذلك كلِّهِ؟ إذَا لم تُنْفَقْ دقائِقُه في تَحصِيل عِلْمٍ، ونَصْرِ حَقِيقَةٍ، ونَشْرِ لُغَةٍ، ونَفْعِ أمَّة، وخِدْمَةِ وَطن.

يَا شَبَابَ الجزائِرِ هَكَذا كُونُوا... أو لا تَكُونُوا...

أَتَمثَّلُه كالغصن المروح، مطلولا بانداء العروبة، مخضوضر اللّحا والورق ممّا امتصّ منها، أخضر الجلدة والآثار ممّا رشح له من أنسابها وأحسابها، كأنّما أنبتته رمال الجزيرة، ولوّحته شمسها، وسقاه سلسالها العذب، وغذّاه نبتها الزّكيّ؛ فيه مشابه من عدنان تقول إنّه من سرّ هاشم أو سرّة مخزوم، ومخايلُ من قحطان تقول كأنّه ذو سكن في السّكن، أو ذو رضاعة في قضاعة متقلّبا في المنجبين والمنجبات، كأنّما ولدته خِنْدِف، أو نهضت به أمّ

الكَمَلَةِ، أو حضنته أختُ بني سهم، أو حنّكته تُماضر - الخنساء- لعوبا بأطراف الكلام المشقّق، كأنّما ولد في مكّة، واسترضع في إيّاد، وربّا في مسلنطح البِطاح.

أَتَمثّلُهُ مُجتمع الأشدّ على طراوة العود، بعيد المستمرّ على مَيْعَةِ الشَّباب، يحمل ما حمّل من خير لأنّ يد الإسلام طبعته على الخير، ولا يحمل ما حمّل من شر لأنَّ طبيعة الإسلام تأبى عليه الشّر؛ فتح عينيه على نور الدّين، فإذا الدّنيا كلّها في عينيه نيّرة مشرقة، وفتح عقله على حقائق الدّين، فإذا الدّين والكون دالّ ومدلول عليه، وإذا هو يفتح بدِلالة ذاك مغالِق هذا، وفتَح فكره على عظمة الكون فاهتدى بها إلى عظمة المُكوّن، فإذا كلّ شيء في الكون جليل، لأنّه من أثر يد الله، وإذا كلّ شيء فيه قليل، لأنّه خاضع لجلال الله، ومن هذه النّقطة يبدأ سموّ النّفوس السّامية وتعاليها، وتهيُّؤها للسّعادة في الكون، والسّيادة على الكون.

أتمثّلُهُ مجتلًى للخلال العربيَّة الّتي هي بواكير ثمار الفطرة في سلاستها وسلامتها، كأنّما هو منحدر لانصبابها، وقرارة لانسكابها، وكأنّما خيط على وفاء السّموأل وحاجب، وأشرف على إيثار كعب وحاتم، وخُتم على حفاظ جسّاس والحارث، وأغلق على عزّة عوف وعروة.

أتمثّلُهُ مُتَرَقْرِقَ البِشْر إذا حدَّث، متهلّل الأسِرّة إذا حُدِّث، مقصورَ اللّسانَ عَنِ اللَّغْو، قَصيرَ الخُطى عن المحارم، حتى إذا امتدّت الأيدي إلى وطنه بالتّخوّن، واستطالت الألسنة على

دينه بالزّراية والتّنقص، وتهافتت الأفهام على تاريخه بالقلْب والتّزوير، وتسابق الغرباء إلى كرائمه باللّص والتّدمير، ثار وفار، وجاء بالبَرق والرَّعد، والعاصِفَةِ والصَّاعقة، وملأ الدنيا فعالا، وكان منه ما يكون من اللَّيْث إذا ديس عرينُه، أو وُسم بالهون عرنينُه.

أتمثَّلهُ شديدَ الغيرة، حديدَ الطّيرة، يغار لبنت جنسه أن تبور وهو يملك القدرة على إحصانها، ويغار لماء شبابها أن يغور وهو يستطيع جعله فيّاضا بالقوّة دافقًا بالحياة، ويغار على هواه وعواطفه أن تستأثر بها السّلع الجليبة والسحن السّليبة، ويغار لعينيه أن تسترقّهما الوجوه المطرّاة والأجسام المعرّاة.

يَا شَبَابَ الجزائر هَكذا كُونُوا!... أو لاَ تَكُونُوا

أتَمثّلُهُ حنيفًا فيه بقايا جاهليّة... يدّخرها لميقاتها، ويوزّعها على أوقاتها، يردّ بها جَهْلَ الجَاهلين، في زمن تفتَّقت علومه عن جاهليّة ثانية شرّ من الجاهليّة الأولى، وتمخّضت عقول أبنائه بوحشيّة مقتبسة من الغرائز الدّنيا للوحش اقتباسًا علميًّا ألبَس الإنسانَ غير لَبُوسِهِ، ونقله من قيادة الحيوان إلى الانقياد للحيوانيّة، وأسفرت مدنيّتُه عن جفاف في العقول، وانتكاس في الأذواق، وقوانِينُه عن نصر للرّذيلة وانتهاكٍ للحُرُمات، وانتهت الحال ببنيه إلى وثنية جديدة في المال وعبادة غالبية للمال، واستعباد لئيم بالمال.

أتمثّله معتدلّ المزاج الخُلُقي بين الميوعة والجمود، وبين النّسك والفتك، تتّسع نفسه للعقيق، وعمر وابن أبي

عتيق، فيصبو ولا يكبو؛ كما تتّسع للحرم وناسكيه فيصْفُو ولا يَهْفُو، وتهزّه مفاخرات الفرزدق في المربد، كما تهزّه مواعظ الحسن في المعبد.

أتمثّلُه كالدّينار يروق منظرا، وكالسّيف يروع مخبرا، وكالرّمح أمدحُ ما يوصف به أن يقال ذابل، ولكنّ ذاك ذبول الاهتزاز، وهذا ذبول الاعتزاز، وكالماء يمرؤ فيكون هناءً يُروى، ويزعق فيكون عناء يُردى، وكالرّاية بين الجيشين تتساقط حولها المُهَجُ وهي قائمة.

أَتَمثّلُهُ عفَّ السّرائر، عفَّ الظواهر، لو عرضت له الرّذيلة في الماء ما شربه، وآثر الموت ظمأ على أن يرد أكدارها، ولو عرضت له في الهواء ما استنشقه، وآثر الموت اختناقا على أن يتنسّم أقذارها.

أتمثّلُهُ جديدًا على الدّنيا، يرى من شرطها عليه أن يزيد فيها شيئًا جديدًا، مستفادًا فيها، يرى من الوفاء لها أن يكون ذلك الجديد مفيدًا.

أَتمثّلُهُ مقدِّمًا لدينه قَبْلَ وَطنِه، ولوطنه قَبل شَخْصِهِ، يرى الدّين جوهرا، والوطن صدفًا، وهو غوّاص عليهما، يصطادهما معا، ولكنّه يعرف الفرق بين القيمتين. فإن أخطأ في التّقدير خسر مرّتين.

أتمثّلُهُ وَاسِعَ الآمال، إلى حدّ الخيال، ولكنّه يُزجيها بالأعمال إلى حدّ الكمال، فإنْ شُغَفَ بحبّ وطنه شَغَفَ المشرك بحبّ وثنه، عذره النّاس في التّخيّل لإذكاء الحبّ، ولم يعذر فيه لتغطية الحقيقة.

أتمّثّلُهُ مصاولاً لخصومه بالحجاج والإقناع، لا باللجاج والإقذاع، مُرْهبًا لأعدائه بالأعمال، لا بالأقوال.

أَتمَثَّلُهُ بَانيا للوطنيّة على خمس، كما بني الدّين قبلها على خمس: السّباب آفة الشّباب، واليأس مفسد للبأس، والآمال لا تدرك بغير الأعمال، والخيال أوّله لذة وآخره خبال، والأوطان لا تخدم بإتّباع خطوات الشّيطان.

يَا شَبابَ الجَزائرِ.. هكذا كونوا.. أو لا تكونوا." (1)

(1) أحمد طالب الإبراهيمي: الآثار، ج3، ص509، وجريدة البصائر، ع05 وع10 وع11 السنة 1947.

خاتمة السيرة:

هذا موجز سّيرة الشّيخ البشير الإبراهيميّ الجميلة وخلاصة أعماله الجليلة وموقفه الثّابتة الخالدة، هي محطّة للاعتبار والتّفكير والتّأمّل والإعجاب والإكبار.

رحم الله الإبراهيميّ وبعثه في زمرة الأنبياء والشّهداء والأولياء

من مصادر السّيرة:

- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 5 أجزاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997.
- مجلة الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثّقافة بالجزائر، السنة 15، العدد 87، 1985.
- مجلة الشّبّان المسلمين، القاهرة، ع66، أغسطس 1962.
- جريدة البصائر، ع05 وع10 وع11، سبتمبر-أكتوبر 1947.
- مجلة الشهاب ج3، م14، قسنطينة الجزائر، غرة ربيع الأول 1357 هـ/فيفري 1938م.
- مجلة مجمع اللغة العربية، مج21، القاهرة، مصر 1966.
- مجلة المصوّر المصرية 1955.
- الفضيل الوتلاني: الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2009.

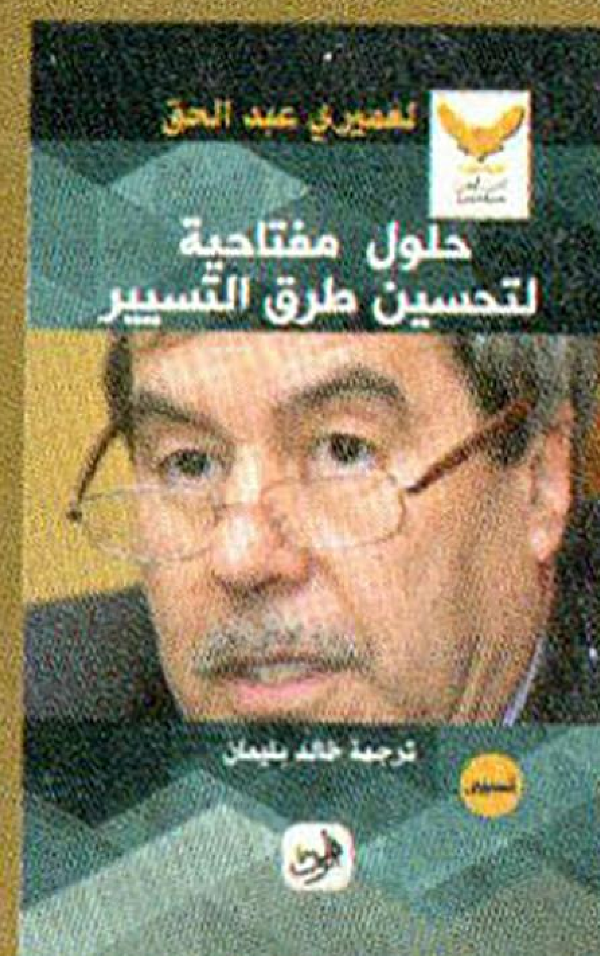
فهرس السيرة:

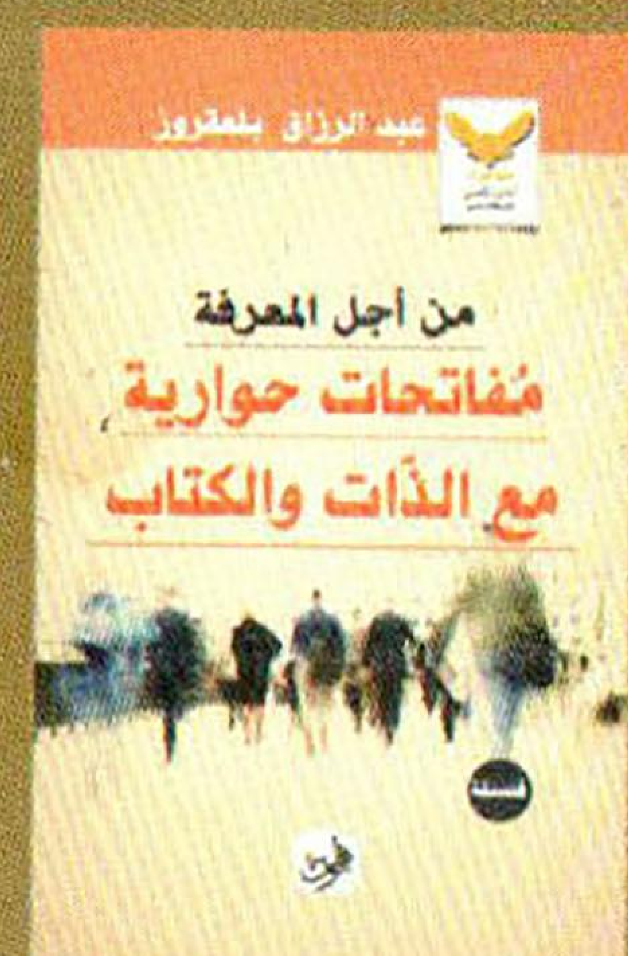


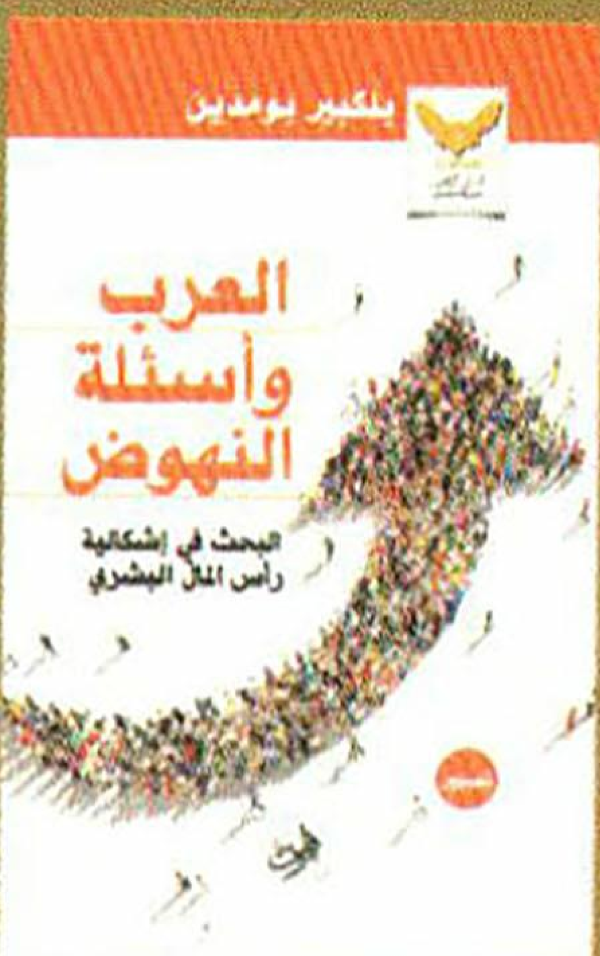




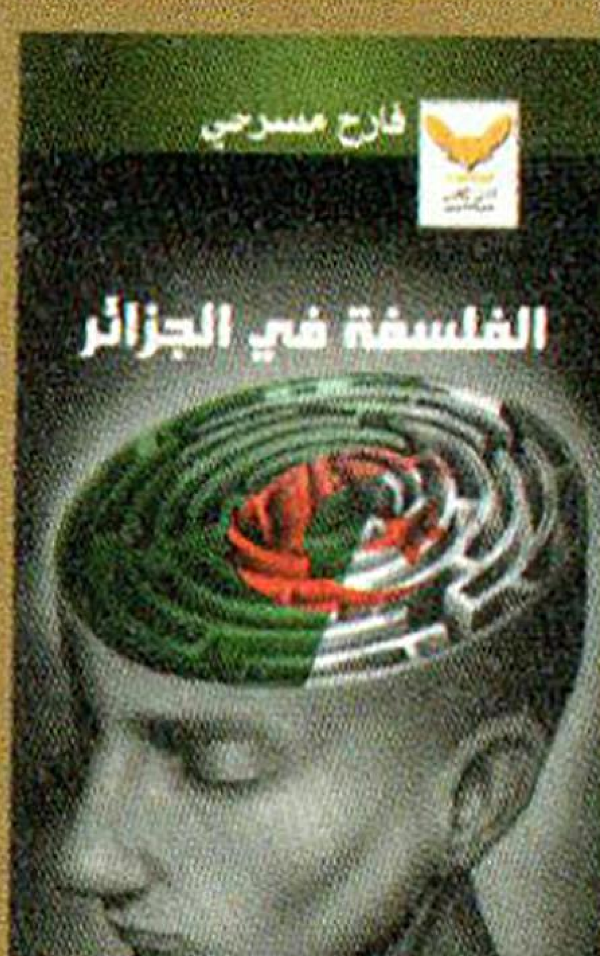






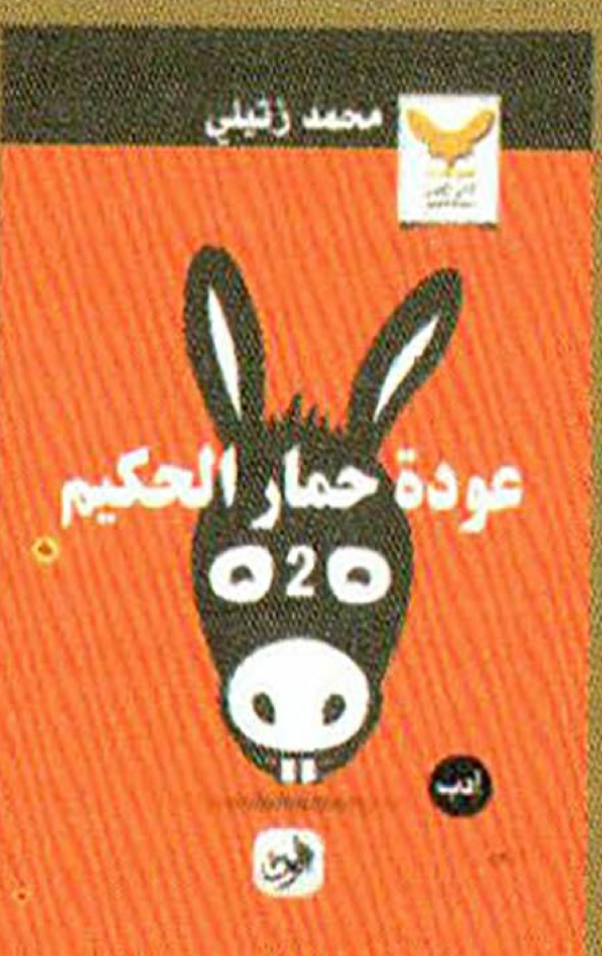


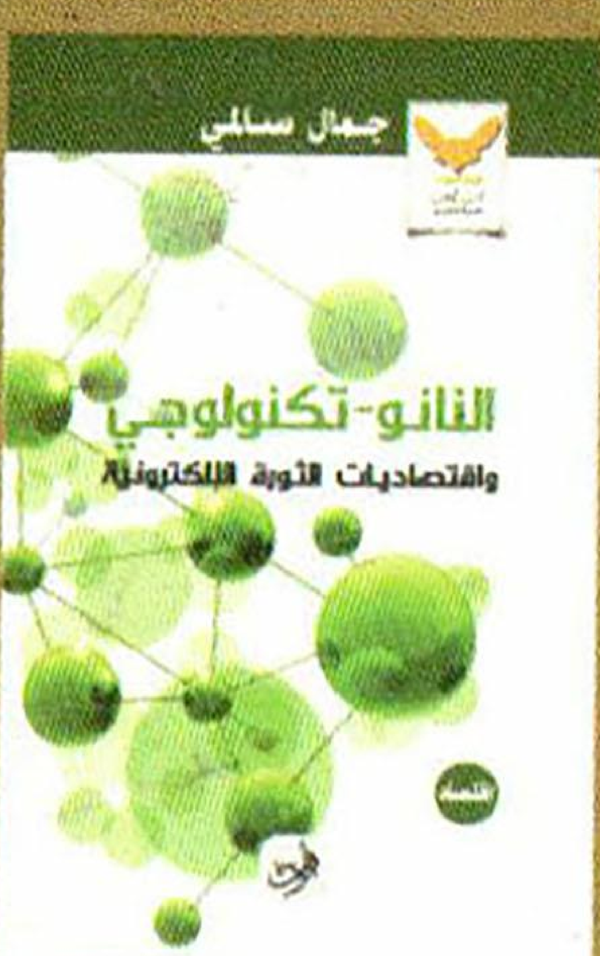


















elwatan.elyoum@gmail.com

Cover designed by: hakim@infografe.com